الطاهر وطار

رمّانة

رواية

كلمة المؤلف

هاهي، رمانة، تستقل بنفسها، وتخرج من مجموعة «الطعنات»، فلقد اقترح ذلك كل من كتب عن المجموعة تقريبا. بل، إن بعضهم وصف رمانة بالاضطهاد، عندما اعتبرت قصة قصيرة.

لقد فرضت ظروف النشر الصعبة في الستينات، أن يعمد الكاتب، إلى جمع أقصى حجم ممكن من كتاباته في كتاب واحد، ليتيح للناس الاطلاع عنها، لأنه متأكد، أن فرصة صدور كتاب آخـر له، نادرة جدا، وربما لن تتكرر مرة أخرى.

لذلك، كانت مجموعة« الطعنات أطول مجموعة جزائرية تقريبا، من حيث عدد القصص التي ضمتها.

واليوم، وبعد تحسن ظروف النشر والطبع الملموس، رأيت، كما رأى، النقاد والقراء من قبلي، أن تخرج رمانة من الطبعة الثالثة للمجموعة، لتأخذ حجمها الحقيقي، وحقها الطبيعي.

لا أزعم أن رمانة رواية، ولا أثق في أنها قصة قصيرة.. لكنني متأكد من أنها تمثل بالنسـبة لي، فترة الانتقال، من لون أدبي إلى لون آخر. تمثل نفسا جديدة وتطلعا جديدا، وهيكلة فنية جديدة.

كنت زمنها منهمكا في كتابة الفصول الأخيرة لرواية «اللاز»، ولست أدري كيـف جعلتنـي الظروف السياسية، أنقطع عن عمل لأنشغل بعمل آخر. وتولد رمانة.. لعلهـا إضـافة مـا الـى «اللاز»، أو شهادة ما، على هامش اللاز...

إن البت في هذا الأمر متروك للنقاد والمختصين. ولكن أؤكد من جانبي، أن رمانـة، عمـل سياسي، مهما بدا مسطحا، فإنه لا يخلو من الرمز. وأن رمانة كغيرها من أعمـالي، لا يجـب أن تقرأ مفصولة عن الزمان والمكان، وعن غيرها من كتاباتي، وعن الهم الأساسي الذي يشغلني.

بالنسبة لي شخصيا، تأكدت وأنا أعيد قراءة «رمانة»، مما سبق أن صرحت بـه وهـو أن الروائي الهادف، والواعي، لا يكتب روايات كثيرة مهما تعددت عناوين كتبه ومضـامين إنتاجـه،

إنما يكتب رواية واحدة، يظل طوال حياته يؤلفها، إلى أن ينتهي... إنه ينظر إلى موضوعه، من مختلف الزوايا، وبدرجات ضوئية متعددة، وأيضا بطاقات حرارية متغيرة.

واضح أنني أتحدث عن الموضوع، وليس عن المضمون. حتى، لا ينصرف الذهن إلى التكرارية، وعدم التجدد وما إلى ذلك.

ودون الإطلالة، أفسح المجال، لرمانة « قضيتنا، في عمقها، وتفتحها، وجلالها، ونبل روحها»، كما قال ذلك أحد من عرفوها عن قرب، لتتولى الترجمة بيني وبين القارئ، ولتكون الجسر الذي يجمعنا.

الطاهر وطار

الجزائر في أفريل 1981

فنجان القهوة يفور، تنبعث منه رائحة لذيذة، وأشعة الشمس تخرق زجـاج النافـذة والسـتار السابري المزركش، وتستقر على جزء كبير من السرير، فتضفي على لون اللحاف الوردي سحراً يبعث على النشوة والأحلام.

وهي جالسة على كرسي وثير، عارية الصدر، لا يغطي باقي جسمها سـوى قمـيص نـوم حريري أملس شفاف.

رفعت بصرها إلى المرآة، فقابلتها نفسها:

جميلة رائعة...

الشعر منسدل، أسود ناعما، على عنق أبيض طويل، وعلى صدر مكتنز عريض.

العينان لوزيتان عسليتان حالمتان.

الأنف مستقيم لا يشوبه عيب، متناسق مع الوجه المستدير والذقن الممتلئـة الجميلـة، والفـم الصغير، تعبر شفتاه القرنفليتان عن دعوة دائمة، لانتظار همسة دافئة منه...

المرآة ممتلئة بها طولا وعرضا..

تنهدت:

- بضاعة، بضاعة ثمينة تروج في كل مكان.

وبانفعال، انسحبت من الكرسي، كأنما هي هاربة من المرآة، واستلقت على السرير، وأفسحت للأشعة الدافئة ترعى في كامل جسمها البض، عدا رأسها الذي داهمته سحابات ذكريات وخـواطر وأحاسيس.

- هذا التاجر التافه، اشتراني، وضعني هنا في منزله كما يضع أية تحفة، وانصرف إلـى جشعه يجمع كل ما عند الآخرين.

لكنني أحببته ذات يوم.. لا أبدا، أغراني. لا أبدا. أردت أن أتأكد من أنني بضـاعة ثمينـة. أردت أن أذله، أن أنتقم لنفسي. فقد تأكدت من ذلك منذ زمن بعيد، منذ عشر سنوات، يوم كنت في سادسة عشر.

وتنهدت مرة أخرى، إنه لبشع جدا، استحضار صور أليمة من الماضي.. لكن ليس في الوسع دفعها.

***

مر أسبوع على دفن أبي، بائع البيض المتجول، فتزوجت «علجية»، أختـي الكبـرى، مـن البرادعي جارنا بمبلغ زهيد جدا، أكلناه أنا وأمي وأختاي في أيام قلائل، وانطرح المشكل من جديد.

لم يخلف المرحوم شيئا، سوى الكوخ القصديري.

خرجت أمي المسكينة، تبحث عن عمل، يوما وثانيا وثالثا.. وعاشرا.. ولكنها كانت في كـل يوم، تعود بقاذورات تلتقطها من مزابل أسواق الخضر.. فانفتح باب كوخنا على مصراعيه...

كانت أمي جميلة، وكنت أجمل منها بكثير.. واستقبلناهم. تمنعت أياما، ثم تحطم كل شيء.

كان حيّنا القصديري كله منغمسا في التفاهة والضياع، فلم نجد غير فعل ذلك.

وذات مساء، عاد سمسارنا الأعرج مبتهجا:

- الليلة عندكن صيد سمين.

وفكرنا أن باخرة أرست اليوم، وأن الأعرج العجوز، نجح في اقتناص أحد ضباطها.. وكـان البحارة أفضل إلينا من جميع الناس، ذلك أنهم كسالى، ويذهبون دون أن يعودوا.. وتفحصنا كوخنا، هل يليق بمقام الضابط السامي؟ غير أن العجوز الأعرج ابتسم مضيفا:

- ليس هنا.. إنما في منزله.

- لا. لن نخرج من هنا.. لا. إننا لا نستقبل إلا من هو في مقامنا.

قالت أمي، فأخرج الأعرج، ورقة نقدية جديدة، وأشار بأصبعه واحدة من خمس لـه وحـده، وغمز بعينه اليمنى.. نصيبنا أكثر بكثير.

- قلت لك، لن نخرج من هنا، ولن نستقبل غير الزبائن الذين يرضون بحينا، وبكوخنا.

أعادت أمي، بينما راقت لي فكرة الخروج من هذا الكوخ، وهذا الحي... أقتحام منـزل فـي العالم الآخر، في المدينة المبنية بالحجارة، وتصورت أفرشة حريرية وثيـرة، ونـورا كهربائيـا، ونوافذ مضيئة، وغرفة لا تقاسمني فيها أمي، وأشياء لا يتصورها عقلي، فقلت:

- لماذا لا نذهب يا أمي؟
- وأختاك من يبقى معهما؟ ثم من يدري؟ لا لن نذهب.

واهتز الأعرج طربا وهتف:

- فكرة. إذن آخذ «رمانة»، و «مباركة» جارتكم.

لم أنتظر جواب أمي، إنما أسرعت للالتحاف، وقصدت مباركة وإن هي إلا دقائق، حتى كنا خارج الحي، عند العين نغسل أقدامنا من أوحال دروبنا، ونضع فيها أحذيتنا. وانطلقنا نمشـي بسرعة رغم احتجاجات العجوز الأعرج، وكأننا نتوق أن نصل بسرعة، لا إلى المدينـة. ولا إلى من ينتظروننا، وإنما إلى المصابيح الكهربائية المتدلية من السماء، لتشع على الطريـق، دون أن يكون هناك أحد يستضيء بها.

خفق قلبي بعنف، ونحن نركب سيارة الأجرة التي أوقفها الأعرج ثم ونحن ننزل منهـا فـي شارع هادئ نظيف، تفوح منه روائح الياسمين والفل.

مد الأعرج ذراعه نحو سارية باب الحديقة، فسمعنا رنينا، ثم رأينا البـاب الـداخلي ينفـتح، ويخرج منه شاب طويل القامة، بلباس أوروبي داكن، ويتقدم ليفتح باب الحديقة.

تأملته على ضوء المصباح المتدلي من السقف، فكان أسمر حليق الوجه، ذا شفتين غليظتين، وأنف معقوف، يبرز من عنق قميصه شعر أسود كثيف.

لم يصافحنا، ولم يسلم علينا، إنما أخرج نقودا ناولها للأعرج، وأفهمـه بجملـة قصـيرة، أن مهمته انتهت، وأنه لا يود أن يراه مرة أخرى هنا، ثم أشار إلينا بالدخول.

تضاعفت دقات قلبي، ونحن ندخل، والباب يغلق خلفنا، ونغمات موسيقى هادئة تستقبلنا.

بعد شهرين من الانحدار، هذه الأولى أخرج لأمارس الشغل خارج كوخنا.

تبعناه في السقيفة، حتى مررنا على أربعة أبواب. اثنان على يسارنا، واثنان على يميننا، ودخلنا غرفة مليئة بضوء أحمر خافت، وبادرنا بصوت خشن:

- مرحبا.

كان الصوت صادرا عن كهل منبطح في أريكة جلدية سوداء، وبيده كأس، يمسكها بإصبعين قرب فمه.

أحسست برجفة في ركبتي وبقشعريرة رهيبة، تشبه تلك التي اعترتني ليلتي الأولى مع البحار، عندما رفض أن ينام إلا معي، وأخرج خنجرا وكل ما معه من نقود، وأشياء ثمينة يقدمها لأمي من أجلي، فأومأت لي برأسها:

- قدر ربي يا رمانة العزيزة.

احترت ماذا أفعل، وبهرني النور، وزاد اضطرابي، خاصة حين مدّ الشاب الأسمر يده الخشنة المشعرة نحو «مباركة» ينزع عنها اللحاف، ويلقيه جانبا، ويفرغ إلي دون أن يتأملها، وما أن نزع الخمار عن وجهي حتى أطلق تصفيرة انبهار، وجمد لحظات يتأملني في نهم، وكأنما يريد الانقضاض علي. اعتراني الخوف والخجل، فكدت أقع في الأرض، وشعرت بتيارات تسري في كياني، حين تقدمت أصابعه، تنزع لحافي بتباطؤ متعمدة، وما تنفست الصعداء، إلا حين قادني كالمخدرة إلى أريكة عريضة، وأجلسني فيها بلطف، ليلتفت إلى مباركة ويخاطبها:

- غرفة الحمام على يدك اليسرى مباشرة، حين تخرجين. اغتسلي أنت الأولى.

ترددت مباركة، فانفرجت شفتا الشاب الأسمر عن بسمة احتقار، وهزء، وكشفتا عن أسنان مطلية بالذهب. ثم خاطب زميله الكهل، بلهجة آمرة.

- خذها للحمام يا مجدوب، وعلمها كيف تغتسل.

- جرع مجدوب ما في كأسه، ونهض متثائبا...

كانت بطنه منتفخة وكان صدره مائلا إلى الخلف، أما ذراعاه فكانتا قصيرتين وكان رأسه أصلع...

ابتسمت مباركة، وهي تنظر إلي بطرف عين، ثم سبقته.

التصق بي الشاب الأسمر، وداعب شعري في صمت، ومرر يده على صدري، ثم على خصري، وحين رفعت بصري إليه سألني:

- ما اسمك؟

- رمانة

- كم عمرك؟

- ستة عشر.

- ما شاء ا ، وبقيت في هذه الحالة التعيسة؟ كم مر على انشغالك؟

- شهران.

- ولماذا تلوثين وجهك بكل هذه المساحيق؟

لم أجبه، وأرخيت رأسي على الأريكة، فمرر أصبعه على عنقي، ثم كاله بشبره، وهوى على شفتي...

لفحتني رائحة كريهة قززتني، فأملت فمي وأنفي جانبا.. بيد أنه سرعان ما فطن، ونهض ضاحكا:

- لك ألف حق.

ثم تقدم إلى مائدة رخامية مستطيلة، عليها عدة قوارير وكؤوس، وصب لي سائلا أحمر كالدم، وعاد إلى جانبي، يلتصق، ويقدم الكأس إلى فمي.

- لكي لا تتقززي من رائحة فمي، ولكي يزول عنك الخجل.

ودون أي تردد، أغمضت عيني، واحتسيت المشروب الأحمر، وكأنني أتجـرع دواء.. كـان عذبا مع حموضة هبط ساخنا إلى حلقي.. فتحت عيني، فوجدت يده تقدم لي كأسا ثانية، تناولتها في يدي، ورحت أرتشف منها، والدفء يتصاعد إلى كامل جسدي، وقلبي يتفـتح بسـرعة للضـوء الأحمر.

لست أدري كم مر من الوقت حتى عادت مباركة بثوب أبيض هفهاف جميل، وعرفت فيمـا بعد أنه قميص منزل، أضفى على سمرتها بهاء وروعة.

- وأنت هل تغتسلين؟ ينبغي إزالة هذه المساحيق عن وجهك.

سألني الشاب الأسمر، ويده على كتفي ما تزال، فبادرت مباركة:

- ما أدفأ ماءهم، وما أكثر عطورهم، وما أجمل حياتهم.

- نعم.

قلت، فأمسك خصري بيديه وأنهضني... ضمني إلى صدره، ثم قادني إلى غرفـة الحمـام، وراح ينشنش ثيابي...

رأيت للمرة الأولى نفسي عارية في مرآة أكبر من هيكلي.. عدت بقميص أحمر، وتمنيت أن لا أنزعه أبدا.

رأتني مباركة، أحتسي المشروب الأحمر، فأمرت كهلها أن يسقيها، وسرعان مـا ارتفعـت القهقهات، ممتزجة بالأنات...

وفي الغد جاءت سيارة لتحمل مباركة ومجدوبا، فطلبت أن أرسل معها حصتي من النقود إلى أمي. غير أن «بوعلام» همس في أذني:

- زال عنها الشقاء إلى الأبد. لن تعود إلى هناك. سآتيك بأمك ذات يوم.

- ستتزوج مجدوبا؟

تساءلت في سذاجة، فقهقه.

انقضى أسبوعي الأول مع شابي الأسمر، بوعلام... لم يعد الكهل، ولا مباركة ولا غيرهمـا، فقط كان الجرس يرن في الخامسة من كل مساء، فيخرج بوعلام، ويعود بصندوق فيه مأكولات من مختلف الألوان، وعدة قوارير.. نتعشى ونشرب، ونسبح في الضوء الأحمر ويعلمني الـرقص... حتى كان اليوم الثامن.. خرج مبكراً، ولم يعد إلا في المساء، أيقظني من النوم، وطلـب منـي أن أرتب الفراش بسرعة وأن أزيل عن المائدة القوارير الفارغة وأعوضها... وما أن جلسـنا قلـيلا، وكان بين الحين والآخر ينظر إلى ساعته، حتى رن جرس الباب.

خرج كعادته، لكنه عاد بصحبة شخص أنيق، في الخمسين، عليه علائم الاحتـرام. رمقنـي وخاطب بوعلام بصوت وقور:

- رائعة. لقد تطورت بضاعتكم.

غمزه بوعلام مبتسما، ثم قدمنا لبعضنا وهو يشير بكلتا يديه:

- زوجتي رمانة، القاضي سي قويدر.

وخطر لي أن القاضي جاء ليزوجنا، فحييته بابتهاج، وضغط على يدي بأصابعه اللازجة.. غير أن الجرس رن مرة ثانية، فخرج بوعلام وعاد يصحبه مجدوب، فتاتان أخريان في سني، عليهمـا ألبسة ضيقة وقصيرة.

كانتا تخاطبان بوعلام، كما لو أن بينهم علاقة وطيدة، وترمقانني بشزر، بينما أنا انظر إلـيهم جميعا في حيرة.

انتظرت أن يعرفني بهما بوعلام، وأسلم عليهما، إلا أن مجدوبا سحبهما بمهـارة إلـى بيـت الحمام، وعاد بهما في قمصان شفافة، ليخرج بي بوعلام أيضا... قادني إلى بيت الحمام، وعاد بي نصف عارية، أفور محمرة الوجنتين، تنبعث مني عطور ساحرة. وأجلسني بلطف إلى جانب السيد القاضي.

كان الضوء الأحمر يغمر الغرفة، والفتاتان تحتسيان بطلاقة ونهم ويد القاضي تتسـلل إلـى يدي. فاستسلمت...

لقد أوصاني بوعلام أن لا أحرج أي ضيف من ضيوفه.. ورنت في أذني قهقهـة بـوعلام عندما سألته هل ستتزوج مباركة بمجدوب، وخاب أملي في أن القاضي جاء ليزوجنا.

رن الجرس مرة ثانية، فخرج مجدوب، وعاد بسيد جديد، في الثلاثين، أبيض طويـل، تبـرز الكلمات من فمه هادئة بطيئة.. نهض القاضي وحياه بأدب، وانحنى علي يصافحني.

- حبيبنا العزيز الذي حدثتك عنه.

قال بوعلام، فرد القاضي في انفعال:

- شرف عظيم. شرف عظيم.

سحب مجدوب بوعلام جانبا، وتحدث إليه بصوت خافت، ثم انصرف، وتركنـا فـي غمـرة الضوء الأحمر، وانغماس الموسيقى...

حين استيقظت في الصباح. وجدت إلى جانبي في السرير القاضي يغط في النوم...

فكرت أن أبحث عن بوعلام في الغرفة المجاورة. غير أنني شعرت بثقل في رأسي. فتماديت في الاسترخاء.

وفي منتصف النهار، عندما أيقظني القاضي، لم أجد في المنـزل لا بـوعلام، ولا صـديقه المحترم الذي لم يكشف لنا عن هويته، ولا الفتاتين، وظل القاضـي يتشـبث بـي، حتـى حلـت الخامسة...

رن الجرس ودخل الصندوق، تعشينا، وأشعلنا النور الأحمر. ورقصت للقاضي عارية.

مر يوم.

خرج القاضي باكرا، ونمت كامل يومي، وفي المساء، قدم مجـدوب والفتاتـان، ومباركـة جارتي، عانقتها بحرارة، وأشارت إلى ثيابها القصيرة، وحذائها اللامع، وأخرجت من حقيبة يدها، علبة تبغ، وولاعة مذهبة.. قدمت لي سيغارة، فرفضتها بحركة من رأسي، وابتسمت ساخرة.

كانت مباركة قد تغيرت تماما، حتى صوتها تبدل، حتى كلماتها أصبحت مخلوطـة بكلمـات فرنسية، تأملتها ولم أتمالك عن البكاء، فهزت كتيفها غير مبالية.

لحق ثلاثة ضباط بحرية يترنحون، سألت مجدوبا قبل أن يخرج، عن بوعلام، فأجـاب بأنـه سيأتي عندما ينصرف الضيوف.

- غدا أو بعد غد.

وعاد بعد ثلاثة أيام، استفسرته عن هذا الوضع، فبادرني:

- هل تريدين العودة إلى كوخك؟

- نعم.

فهوى علي بصفعة، ثم أخرج أوراقا نقدية رماني بها:

- ثمن لياليك، عدا الأكل والشرب واللباس، هل يرضيك؟

قذفتها في الأرض قائلة، وقد خنقني الدمع:

- وأنت؟

- ليلة في الأسبوع. ألا يكفيك؟

أجاب بفضاضة.

- وأمي؟

- إلى الجحيم.

أضاف بوحشية، فجن علي، وسارعت إلى الخزانة، لأستخراج اللحاف الذي جئت به، غير أنه لحق بي، أمسكني بعنف من شعري، ثم دفعني بركلة، فسقطت على الأرض.

ارتجفت مذعورة، ولسعتني جلدتان من سوط جاف، فارتميت على قدمه أعضها، إلا أنه هوى على رأسي بعقب حذائه، فلم أستيقظ إلا في صباح الغد، لأجده إلى جانبي، فارتميت عليه، أجهش.

مرت أيام ثقيلة رتيبة بطيئة، وشعرت بالملل، رغم تغير وجوه أصدقاء بـوعلام ومجـدوب وصديقاتهم...

قلبت الأمر على كل وجوهه، فلم يقابلني غير الفرار، والرجوع إلى كوخنـا، أقاسـم أمـي المعاناة، بعيدة عن الضوء الأحمر، ولم أجد أي مبرر لبقائي في هذا الجو المخنق...

حاولت ذات يوم، وقد بقيت وحدي في الفيلة الكبيرة، أن أخرج، فلم أجد منفذا، كانت الأبواب مغلقة بإحكام.. فعدت إلى قاعة السهرات، تأملت النوافذ، فاكتشفت للمرة الأولـى، أنهـا مسـيجة بقضبان حديدية.. بكيت بمرارة وصدق لحظات، ثم سكبت كأسا من قارورة ارتشفتها، وأضفت لها ثانية وثالثة.

كان المشروب أبيض لزجا من الذي تعود الرجل شربه، فاستعذبت مرارته، وحرارته الشديدة، وشعرت بالبلادة تصعد إلى رأسي، فترتخي أعصابي وترتخي.

بدأت الجدران والأرائك والقوارير والكؤوس تبتعد عني وتبتعد، حتى لم يبقى سواي، وكأنني بلا وزن، بلا جسم، أسبح في متاهة زرقاء ضبابية...

قذفت رأسي على حافة الأريكة، وهمدت أنشد الفناء حتى تكرر نداء منبعث من خلف النافـذة مرات عديدة.

- رمانة. رمانة.

ترنحت متقاذفة، فرأيته كالشبح يلوح بيده، ويبتسم ملء فيه الأزرق:

الأعرج سمسارنا.

- كيف حال أمي.

- إنني في حاجة إلى نقود، إلى ستين دورو.

- أمي وأخوتي.

- بخير، أمك طعنها البرادعي بخنجر، وذهب إلى السجن، وأختك تستقبل الضيوف.

سقطت على الأريكة، ولم أستيقظ، إلا على أنفاس مجدوب، يلثم وجهي.

- أين بوعلام؟

- عليه اللعنة، سافر إلى وهران.

- رمانة أحبك، أنا أحبك، اللعين أقسم أن لا أمسك إلا بمائة ألف، هل تتصورين، أنا صديقه، أنا شريكه. لكنني آه، هل تتركينني أنام معك الليلة.

- معك أو معه أو مع القاضي أو الشيطان. لا يهم، مادمت هيكلا بلا روح، بلا خجل، بلا تردد.

قلت في قلبي، ثم أعدت على الكهل ما رواه العجوز الأعرج فبكى واحتسى ووعدني بأن يحملني في الليل إلى حينا، فكشفت له عن صدري أرضعه واستعجلته الذهاب.

فتح خزانة الثياب، وانتقى لي ثوبا حريريا جميلا. طلب مني أن أرتديه، واختار حذاء طويل الكعب، وحقيبة يدوية في لونه، ووضع على كتفي قطعة حريرية سوداء وتولى بنفسه ظفر شعري في شبه تاج، ومرر أحمر شفاه باهت على شفتي ورسم خانة على خدي الأيسر.

أخرجني سافرة، والتصق بي في تبجح وتطاول.

قصدت باب كوخنا، فوقفت لحظات، ولما لم أسمع حركة... تقدمت إلى كوخ أختي، أرملة البرادعي، فبلغني صوتها وهي تترنم على دقات طبل بارد.

«يا جاري ياحمود... يا جاري دبر علي... الناس تبات رقود... وأنا النوم حرام علي».

هربت مذعورة، إلى كوخنا، وعلى ضوء مصباح مجدوب، أزحت السلك الذي يغلق الباب، وتدلفنا.

اهتز قلبي بعنف، وشعرت بحرارة الدموع في عيني، واصطكت أسناني، وغمرني شعور قوي، بأن حينا، وإن انحط إلى أسفل السافلين لا يخلو من الرحمة.

كان العجوز الأعرج نائما، وعلى يساره أختي « الفايزة » التي لم تتجـاوز بعـد الخامسـة، وعلى يمينه أختي «رَبْحْ» التي تكبرها بعشرة أشهر.

- الأعرج! عمي الأعرج. أنا رمانة.

جذبته من قدمه السليمة، فرفع رأسه، وراح يفتح عينيه بجهد، لقد بهره نور مصباح مجدوب.

- أعوذ با .

- لا أنا رمانة، هاك هذا المبلغ لتنفقه على البنتين.

وانحنيت، قبلت الفايزة ثم ربحا. كانت روائح قذرة تنبعث منهما وكانتا مـع ذلـك رائعتـي الجمال.. تنهدت من أعماقي. وانسحبت مع مجدوب، والتصقت به وهو يقود سيارته، وشعور قوي بفضله يغمرني.

لم نعد مباشرة إلى "الفيلة" في الحي الهادئ العبق، إنما طفنا في أغاب أنهج المدينة، وفهمـت أن مجدوبا يملك مرقصين فخمين، وأن مباركة تعمل عنده، ثم قصدنا مطعما فخما مليئـا بالسـادة المحترمين.

تناولنا عشاءنا، ثم عاد بي مسرعا إلى المنزل، وقبل أن ننام، أفهمني أن بوعلام له أكثر مـن مائة زوجة، وأنني سأظل فترة طويلة أفضل زوجاته، وأنه يكسب أموالا طائلـة مـن كـل هـذه الزوجات، ويسيطر بهن على كل من يريد.

- لو لم يكن اللعين متعلقا بك لتزوجتك، ووهبت اك كل مراقصي.

- وتتاجر بي مثله.

- طبعا. طبعا، مثلما نتاجر بالذهب والماس، وبحياتنا.. اللعين يكسب منك في الأسبوع ما لا أكسبه من مراقصي في الشهر. بالإضافة إلى الصداقات التي تجلبينها له مع...

- ويمنحني ألف فرنك في الليلة.

- قد يمنح اك أكثر، ولكن أنت وما يحيط بك ملك له. يبدو أنك تحبينه؟

- قد يكون، ولكن أريد أن أفلت منه.

- مستحيل مادام على قيد الحياة، طاغية جبار كل مفاتيح الدنيا في يـده.. اللهـم.. تسـقينه وتسممينه، سأعينك وأتزوجك.

لم أعلق على اقتراحه، وسرح خيالي إلى طفولتي، وعشت لحظات مع أبي نطوف الأحيـاء، وننادي:

- بيض، بيض جديد.

في صباح الغد الباكر، أغلق مجدوب خلفه الأبواب، بعد أن أوصاني بإخبار بـوعلام بـأنني قضيت ليلتي مع ضابط بحرية...

ظللت كامل يومي فريسة لتخيلات مفزعة، وصور أليمة بشعة، وعجزت في إقنـاع نفسـي بالرضوخ إلى الأقدار، وبأن هذه الحياة التي أحياها، رغم عدم انسجامي معها، هي على أية حال، أفضل من حياتي السابقة.

لقد ساءني أن أكون رغم سحر جمالي، صورة في ورقة يتلذذ بي الرجال، ثـم يقـذفونني.. وساءني أكثر أن أعجز عن الاستيلاء الكلي على هذا الأسمر المشعر.. وأن تظل الظروف التـي يخضع لها أقوى مني، وشعرت بالحقد والكراهية، رغم أنني أنجذب إليه، كلمـا تخيلـت سـمرته وفتوته.

وعندما عاد في المساء، فتحت له ذراعي، وضمني بعنف وأخبرته بكل ما حدث بيني وبـين مجدوب، باستثناء قضية التسميم، وسألته عما يدفعه إلى هذا العمل البشع، ورجوته أن يقنع بما لديه من أموال، ويغير التجارة، فأكد لي أن التجارة كلها مبنية على أساس واحد، مهما اختلفت وسائلها، وأنني بضاعة أن لم يتجر بي هو، فسيتاجر بي غيره، وإن لم أكن أنا بالذات، فواحدة أخرى...

البضاعة متوفرة، والطلب عليها متزايد، والربح الكثير خير من الربح القيل، والربح السـريع خير من الربح البطيء...

قال بإنه يعلق علي آمالا كبرى في إعانته، وإنني بعد أن أنسجم، وأفهم سر الحياة، أحقـق لنـا معجزات كبرى وإنني عمليا زوجته، ولكن حظي شاء أن يكون زواجنا من نوع معـين.. ولكـي يقنعني، بشرعية العمل، أكد لي أن زوجة القاضي وزوجة السيد المحترم، ستسهران عندنا الليلة.

كان بوعلام يخاطبني، كما لو أنني زوجته بالفعل، وكما لو أنني زيادة على ذلك، شريكة لـه في مشاريعه وأمواله، فشعرت نحو بعطف، ودب في نفسي شبه حماس، رغم عدم اكتراثه بمـوت أمي، ين قال:

- الفقراء ميتون من يوم ولادتهم.

ثم قدم لي علبة صغيرة:

- هديتي الأولى.

أسرعت إلى فتحها، ففوجئت بعقد ذهبي جميل، قبلته وهو يضعه في عنقي، ثم تأملته مليا في المرآة، فبدا لي أنه مستعمل. ولكن مع ذلك، سررت له في أعماقي.. كان أول قطعة ذهبية، أتحلى بها في حياتي.

تركني بوعلام منشغلة مع نفسي في المرآة، وخرج ليعود بعد ساعتين بأصدقاء وصديقات من ضمنهم سيدتان لطيفتان، هما «رحيمة»، زوجة السيد القاضي، و« حلومـة»، زوجـة الصـديق المحترم...

همس بوعلام في أذنيهما، وهو ينظر إلي، فبادرتا إلى تحيتي بإكبار وإجلال، وظللت منبتهـة في انطلاقهما في الانغماس، وفي تذللهما لبوعلام ومجدوب، وبدا لي أن بوعلام كذبني، فهما ليستا سوى لقيطتين.

لكن حين راحتا تتحدثان عن زوجيهما وأبنائهما، وأخرجتا صورا لعائلتيهما. تأكدت من أنهما بالفعل سيدتان من المجتمع المحترم.. وقلت وفي قلبي، ولم لا أتزوج أنا أيضا سيدا محترمـا، ثـم أجبت نفسي بأنني من الحي القصديري.

- هن وأزواجهن، وكل شيء في هذه الحياة بضاعة تباع وتشترى.

قال لي بوعلام عندما انصرفنا إلى النوم، وأخرج من جيبه صورا لنسـاء ورجـال عـراة، وأضاف مقهقها:

- لا يستر عورة هؤلاء، سوى القانون الذي يحكمون به الناس..

لم أفقه من كلام بوعلام شيئا، فلم أجاره في الحديث، وانتقلت إلى موضوع آخر، يتعلق بـي أنا.

- بوعلام

- ماذا؟

- هل صحيح أن لك مائة زوجة؟

- أكثر، كل نساء البلاد تحت تصرفي، لكنك أنت فقط أعز ما في حياتي.

- ومع ذلك تفسح المجال لغيرك أن يعبث بي.

- آه لا تذكريني. إني أشعر بالغيرة تمزق قلبي. ولكن لا تتصورين الفائدة التي جنيتها مـن القاضي بفضلك.. لن يمسسك أحد بعد، سأعلمك طرق استعمالهم دون أن يلوثوك، وسأشتري لـك ذهبا كثيرا، وأصطحبك معي في رحلاتي...

غلبه النعاس، نام قبلي، وإن هي إلا لحظات حتى شرع يهذي بصوت مرتفع، ويصيح:

- هاتوا الذهب، وألقوا بجثتها في البحر.

وتذكرت كلمات مجدوب، وأيقنت أن العقد الذهبي الذي قدمه لي، لهاته الشـقية التـي يـأمر بإلقائها في البحر، وتصورت لي رائعة جميلة ساحرة فاتنة، طيبة ساذجة. حاولت أن تتخلص مـن قبضته، فقضى عليها.. ليست هي الأولى، قد تكون العاشرة، ولن أكون الأخيرة، ورنت في أذنـي كلمة مجدوب إن لم تسبقيه وتسمميه.. وارتعت في الظلمة، فأشعلت المصباح النـومي، ونهضـت مذعورة...

تأملت وجهه، فوجدته أزرق مخيفا، أسنانه تصطك وشفتاه تتحركان، واللعاب يسيل من فمه.

ازددت ذعرا، فتسللت من جانبه، وارتديت ثيابي، وأخرجت حافظة نقوده، وتناولت المفـاتيح من جيبه، وأسرعت إلى الخزانة، حملت منها عدة قطع من الثياب، وفي السقيفة، اختطفت حقيبتـه ومعطف زوجة القاضي، ثم فتحت الباب بحذر وانطلقت...

حاولت أن أركض، فعاقني دوار في رأسي، فرحت أوسع خطاي، وبين الحين والآخر، التفت خلفي...

كان الشارع هادئا ساكنا، فأحدث وقع حذائي ضجة، خيل لي أن العالم كله استيقظ لها.

- إلى أين أذهب؟

تساءلت، فلم أجد جوابا، وبدأت أشعر بالخوف والندم، وترددت في رأسي أصوات.. الفقـراء ميتون من يوم ولادتهم.. زواجنا من نوع معين.. بضاعة إن لم أتجر بك أنا فسيتاجر بك غيري.. هن وأزواجهن وكل شيء في هذه الحياة، بضاعة تباع وتشترى.. سأشـتري لـك ذهبـا كثيـرا، وأصطحبك معي في رحلاتي، وهممت بالرجوع، ورحت أحدث نفسي:

- عم أبحث في هذه الحياة؟ لأكن له. لأكن له.. ليفعل بي ما يشاء، الأسمر المشعر الفتـي.. لأسكر وأسكر.. وأفن وأفن.. ليربح مني الأموال الطائلة.

- هاتوا الذهب، والقوا بها في البحر.

لفحتني نسمة باردة، فاستيقظت من غفوتي، وسارعت لنزع حذائي، وركضت هاربة، حتـى ضمني الشارع العريض المؤدي للمدينة. ارتديت حذائي، وتراءى لي والدي المرحوم، وهو يجـر عربته الصغيرة، متجها إلى هذا الحي، ليبيع البيض بضعف ثمنه في الأحياء الأخرى.. ويقول لي:

- هنا، الأغنياء، يستاؤون عندما تكون البضاعة منخفضة الثمن.

عرفت الطريق المؤدي إلى حينا القصديري، ولكن لم يخطر لي قط أن أقصد إلـى هنـاك، فسيلحقني ويجدني، ويسترجعني ويقذف بي في البحر.. ماذا سأفعل؟ إنني لست سـوى بضـاعة،

ويقين أنني من البضائع الثمينة.. سأشتغل لنفسي.. الربح الكثير خير من الـربح القيـل، والـربح السريع خير من الربح البطيء.. سأجمع نقودا ونقودا، وسأشتري منازل في المدينـة.. وأخضـع قلوب سادة محترمين وأنتقي لنفسي، لا قاضيا ولا شخصية غامضة، إنما أختـار ضـابطا سـاميا يستطيع حمايتي.

- وبعد ذلك؟

- هن وأزواجهن وكل شيء في هذه الحياة، بضاعة تباع وتشترى.

توقفت عربة قربي، وانفتح بابها...

- فكرة.

وارتميت، أليس هو.؟ استرقت النظر، كان متوسط العمر، أبيض نحيفا، مقبول الشكل، يرفـع أنفه المستطيل في كبرياء.

- واحد منهم.

قلت في نفسي، ولم أشعر بأي خوف منه.

المهم أن يبتعد بي أكثر قدر ممكن عن بوعلام، وسأعرف هذه المرة كيف أتصرف.. وبالفعل انطلق غير مبال بي، وكما لو أنني لم أكن إلى جانبه، قطع مسافة اختلطت فيها الطرقات علي، فلم أعد أدري ما إذا كنت في يقظة، أم في حلم...

- ارفعي الخمار عن وجهك.

قال، وقد توقف أمام بناية ضخمة، فانتفضت:

- لماذا؟

- قد تكونين عجوزاً، أو.. من يدري.

راقت لي هذه الفكرة، فضحكت من أعماقي، وسارعت إلى رفع الخمار، فابتسم في كبرياء.

- وما دخلك في شأني يا سيدي؟

- كيف؟ ولم ركبت معي.

- فقط لتوصلني.

- وماذا تفعلين في الشوارع في هذا الوقت المتأخر.

- هاربة من زوجي.

- ورائحة الخمر التي تفوح منك ؟

سكت، وطأطأت رأسي، وتذكرت درس بوعلام الأول.. لكي لا تتقززي من رائحـة فمـي.. وفهمت أن هذا الغريب غير شارب وعجبت لذلك، فقد كنت أعتقد، أن كـل السـادة والأغنيـاء، يعومون في الخمر، مثل البحارة.

أوقف المحرك، وأطفأ الأنوار، وفتح لي الباب:

- هيا.

قطع بنا المصعد عدة طوابق، دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر، وعندما توقف تنـاول حقيبـة يدي، ودفعني من مرفقي بأصبعه، ثم سبقني إلى باب. فتحه، وأشار إلى بالدخول بعـد أن أشـعل النور...

كانت الأبواب الخمسة مفتوحة.. غرفة نوم، قاعة جلوس مطبخ، بيت حمام، كنيف.. علقـت لحافي في البهو، وقصدت بيت الحمام أغسل وجهي، ولفت انتباهي صغر حجم المرآة، ثم لحقتـه إلى قاعة الجلوس، وتهالكت دون استدعاء.. استرق النظر إلي، وهو ينزع معطفه وحـذاءه، ولـم يصفر مثل بوعلام، إنما فقط ابتسم بتكلف، وقال بصوت متحرج:

- وماذا فعل لك زوجك؟

- يريد أن يتزوج علي ! !

ورغم أنه لم يصدقني، فقد ارتسمت على ملامحه امتعاضة، وسحب يده اليسرى إلى الخلـف، بعد أن ألقى نظرة خاطفة على حزام ذهبي بإصبعه، وكأنما يريد أن لا أعرف أنه متـزوج.. ثـم أسرع إلى المطبخ.

تأملت القاعة، فكانت شبه فارغة، فقط بعض مقاعد خشبية وأريكة قماشية ومنضدة عليها كتب وصحف ومجلات، وكانت الفوضى تسود كل شيء...

عاد بقارورة مشروب بين كأسين، وماء مثلج وقطعة جبن، وتهالك إلى جانبي، وكانت حركاته قبل أن يحتسي كأسين، ويشعل سيغارة، مضطربة حذرة، كما كانت كلماته قصيرة متقطعة.

سأل عن اسمي وعمري، وما إذا كنت أقرأ وأكتب، وكأنما أعداني من اضطرابه وانقباضـه، فرحت أجيبه باقتضاب.. الحق أني كنت مجهدة مرهقة.

- حسنا هيا نرقد، فإني أريد الاستيقاظ مبكراً.

- لكنه الأحد.

- لم أر الناس منذ يومين، كنت في سفر، وعدت لتخطفيني أنت؟

انتفضت، ووثبت دون شعور، مبتعدة عنه، وأنا أحدق فيه.

- وهل كنت تبحثين عن زوج قبل أن تأتي معي؟

- لا أريد زوجا مثلك، إنني لم أخطفك، ولا أبغي إبعادك عن أبنائك.

- أقصد، أقصد..

ارتبك، وارتشف، وأشعل سيغارة، والتزم الصمت.

- أليست هذه دارك؟

- يبدو أنك بالفعل هاربة من زوجك؟

- لماذا؟

- لأنك لم تفهمي أن هذا المنزل خاص لما يصادف.

وتراءى لي الحي القصديري، والأكواخ البئيسة.. وأختاي إلى جانب الأعرج، تفوح من أسمالهما الروائح القذرة، وشعرت بمرارة، وحقد وحسد، وتساءلت في أعماقي:

- لماذا؟

- هيا نرقد.

- لماذا لا تذهب إلى زوجتك وابنيك. دعني يا سيدي أسترح فإنني منهكة.

غير أنه ارتمى علي واحتضنني.. ضمني إليه، كما لو أنني أعز ما في حياته، كما لو أنني أحد أبنائه، كما لو أنه زوجي..

استسلمت له، رغم شعوري بأني أسرق، آكل جيفة، أزني أمام أمي، وعندما احتسيت الكأس الرابعة، صعدت اللامبالاة إلى رأسي، وغمر جسمي الدفء، فانطلقت.. وقد غادرت الزمن، فنسيت ماضي وحاضري ومستقبلي...

حاول أن يحملني بين ذراعيه إلى السرير، فعجز، واكتفى بمساعدتي، ولم نستيقظ إلا عند الظهيرة.

- كم تطلبين؟

- لا شيء.

- عجيبة.

- فقط أرجو أن توصلني إلى محطة القطار.

- أو تغادرينني بهذه السرعة.. إلى أين أنت ذاهبة؟

فكرت لحظات، ثم رويت له كل شيء، واستقبل كلماتي بتعجب واستغراب، وتأثر...

آه. عندما رويت قصتي بصوت مرتفع وأنا صاحية، وأمام غريب انهمرت الدموع غزيرة من عيني. وزالت حدة المرارة التي كانت تغمر قلبي.

- على فرض أنني أعير لك هذا المسكن ماذا ستشتغلين.. إنك لا تليقين للشغل فـي البيـوت وإلا...

وبدا لي أنه طيب، رغم سحنة الكبرياء التي يتخذها أنفه بين والحين وآخر.. وراقـت لـي كثيرا فكرة بقائي في هذا المنزل، حتى ييأس بوعلام من العثور عليا، ثم أنطلق من جديد، لن أعود إلى حيينا القصديري. سأكتري بالنقود التي سرقتها من بوعلام سكنا، غرفة واحدة تكفيني، وأنقـذ أختي ، الفايزة وربحا.. وأشبعهما، وأدخلهما المدرسة وأزوجهما.

- معي من النقود ما يكفيني فترة طويلة. فقط أرجو أن تمهلني حتى ينسوني.

هاك المفاتيح، لا تخرجي، ولا تفتحي الباب، أنا معي مفتح آخر، وسأشتري ما يلزم لطعامك.

ثم انحنى، لثم جبيني، وداعب شعري وانصرف، لأعود إلى السرير، وأستسلم إلى نوم عميق هادئ، استيقظت منه لأجد الظلمة تلفني، والدفء يغمرني...

راقتني الظلمة، ولذ لي الدفء، وأوهمت نفسي بأن الحياة هي هذه، وأنني فـي أقصـى ذرى الهناء والطمأنينة، لا يتحتم علي إتيان شيء، سوى إغماض عيني، والاسترخاء.. وبدا لـي أننـي خاطرة تجول في الآفاق، ونغمة تائهة، وشعاع يلثم زهرة...

ما أجمل الشعور بالطمأنينة.

عاودني النوم مرة أخرى، ولست أدري كم مر من الوقت، حتى استيقظت على ضوء يشتعل، وصوت هادئ يهتف باسمي:

- رمانة. رمانة..

فتحت عيني أتثبت منه.. من يكون هذا السيد المتوسط العمـر، الأبـيض الطويـل النحيـف الأنيق...

كان يبتسم.. ومع ذلك لبثت لحظة، أتأمله باستنكار.. لقد نسيت ليلـة البارحـة، وكـل مـا اعترضني فيها، محا النوم، بعد سهاد طويل، كل آثار الماضي من رأسي، كنت كمولود جديد خالية الذهن من أي شيء، لا تنقصني سوى صيحة الاستفهام. مددت يدي إلى الغطاء، أستر به صـدري العاري، فرأيته يرتبك متحرجا، ويرفع رأسه إلى السقف متسائلا:

- أما تزالين نائمة؟ هل استرحت جيدا.. لقد أحضرت العشاء.

أجلت بصري فيما حولي، وسرعان ما استرجعت ذاكرتـي.. إننـي فـي ملجئـي متخفيـة كالمجرمة، وهذا السيد المحترم الذي لا أعرف اسمه بعد، هو صـاحب المحـل. إنـه يتفقـدني كالشريك، بل كالتاجر المهتم بالبضاعة المسروقة.. ترك أبناءه وزوجته وجاءني.. ماذا يريد.. جاء يحمل العشاء.

- كيف حالك؟

- على أحسن ما يرام، وأنت؟

- كيف وجدت أبناءك؟

وتراقصت تقطيبة على جبينه، لعله تصور أنني أسخر منه، لعله شعر بالحرج، لسـت أدري لماذا لا يتصور أنني أسأل عن أبنائه عن طيبة قلب، كما سألت عنه. يقين أنه يتمادى في الهروب من واقعه، وأنا غير لبقة، لا أحسن مساعدته.. إنني غريرة ساذجة، ما أزال.

تماديت في الاستلقاء على ظهري، فتردد قيلا ثم جلس على حافة السـرير.. ظـل لحظـات ساكنا، ثم مد يده وتناول يدي يضغطها في لطف، ويعبث بأصابعها.. انحدرت دمعات باردة مـن مآقي، وظللت صامتة.. كان الشعور بالغربة وبالضعف، يطغى علي.

- ما يبكيك.

لم أجبه، فأخرج منديلا أبيض من جيبه، وراح يجفف دموعي، ويحدق فيّ بحنـان وشـغف ونهم.. لا شك أنني رائعة، أثرت فيه الأحاسيس...

- إنني مريضة، رأسي يتصدع، أرجوك.

راودتني فكرة الاستسلام له والاستجابة لمشاعره، ودمجه في جو المأساة، إلا أنني لست أدري ما دفعني إلى التمنع والصدود. فازداد اضطرابا وابتعد عني، وأخرج سيغارة، ظل يعبث بها دون أن يشعلها، وبعد فترة طويلة همس دون أن ينظر إلي:

- هيا انهضي. الساعة السابعة، وسيفسد العشاء.

حين كنت مع بوعلام، لا أبالي أن أنهض بقميص النوم، أما الآن فإنني أحس بدافع التستر، طلبت منه أن يمد لي حقيبتي، فلبى سريعا، وأخرجت رداء الغرفة الوردي الهفهاف، سترت به صدري، ثم ارتديته ووثبت عملاقة من السرير، شاردة الذهن، مبعثرة الشعر.. قصدت غرفة الحمام مباشرة، غسلت وجهي، وتقدمت إلى المرآة لأسرح شعري.. بهرتني صورتي، وتراءى لي وجهي غريبا كل الغرابة عني. هذه المرة الأولى أنظر فيها إلى المرآة بهدوء واطمئنان وصفاء نفس منذ غادرت حينا..

كان وجهي أشد بياضا، وأكثر امتلاء.. زالت النتوءات، واستدارت ذقني، وعذب أنفي، وعمقت نظرتي.. تأملت صورتي لحظات، مسحورة مشدوهة بجمالي، ثم سرحت شعري وعدت:

- لا، لا تدخلي بيت النوم فالنافذة مفتوحة إني هنا..

كان في المطبخ، يسوي غطاء المنضدة، ويعد الأطباق، فانفعلت:

- لا تكلف نفسك، سأتعشى فيما بعد.

- ولكن سأتعشى معك.

لم أجبه، وسارعت لنزع السلة من يديه وإفراغها.. خبزة طويلة بيضاء، دجاجة محمرة، برتقال، قارورة خمر، قطع جبن وزبدة..

- إنك ضيفة.

ابتسمت، وسيطرت على انفعالاتي، وخوالج نفسي.. زوجته وأبناؤه ينتظرونه وهو يحظر الخمر ويأتي ليعشيني، لكن مع ذلك ينبغي، أن لا أحرجه أو أخدش كرامته، وأن لا أعكر صفو مزاجه.. والشراب.. لقد قررت أن أواجه كل لحظات حياتي صاحية متيقظة. لن أشرب، ولن أتركه يشرب.. لن يتملكني بمنزله وعشائه وخمره، ولن أتملكه بجمالي ودموعي.. وليزن كما يشاء، كالقاضي كالسيد المحترم.. هم يعبثون، لأنهم يشبعون، وبوعلام ومجدوب يستعملانهم والأعرج يسمسر ونحن نشتغل لنكسب قوتنا...

- فيم تفكرين يا رمانة؟

فتكلفت ابتسامة:

- فيك، لا أعرف حتى الآن اسمك، ولا من تكون؟

- آه.

وتنفس الصعداء.. لم أذكره بزوجته وأبنائه ومركزه.. اعتدل في مقعده، ومد يده للقارورة.

- لا. أرجوك. لا تفتحها فقد ملات رائحته القذرة.

- لا أشرب إلا في المناسبات. ومن أجلك فقط..

- إن كان من أجلي، فأرجو أن لا تفتحها.

قاطعته، فامتثل منقبضا، واستغرق في الحديث عن نفسه.. سيد محترم جدا، ليس تاجرا ولا عاملا، اسمه "صالح"، في الخامسة والثلاثين، له طفل وبنت، زجته فرنسية، تشتغل في الإدارة وتتقاضى دخلا كبيرا، أمه تعيش معه وتربي ابنيه، يسكن في قصر ويستعمل هذا المنزل لما يصادف.

- ليس من عادتي أن أعرف الفتيات اللائي أصادفهن بنفسي، ولكنك ضيفة من نوع خاص.

- أي نوع؟

دفعني فضول المرأة، إلى معرفة رأيه في، وألححت:

- كيف من نوع خاص؟

- أريد أن أقول، أن.. إنك.. نقية إلى حد الآن، رغم.. لم تحترفي بعد، ولا تتاجرين.. أنا أبغض ذلك النوع.. لقد نجوت من بوعلام.. ولكن الحياة الشريفة تعسر عنك.. لو لم تكوني صارخة الجمال، لشغلتك في منزلي، لكن... إنك لا تقرئين ولا تكتبين، ولا تحسنين عملا غير... في الحقيقة لا يوجد عمل. ولست وحدك مع ذلك...

ولم يعطني رأيه فيّ قط، اكتفى بأنني صارخة الجمال، وتحدث عن الظروف المحيطة بي، متشائم من مستقبلي، يرى أنني نجوت من بوعلام، ويتحدث عن الحياة الشريفة.

أعدت بسذاجة آراءه، وبدا لي أنه لم يأت بجديد، وترك كل شيء على عاتقي وحدي، حتى الاكتراث بوالديه وزوجته.. وتصورته بعربته، يشق البهمة، متقوقعا على نفسه، رافعا أنفه في كبرياء، لا يبالي بمن حوله.

ومع ذلك يضطرب أمام المرآة.. أناني، بلا جشع، وبدون قلب، أحقر رجل عرفته. قلت في نفسي، ومع ذلك ظللت أجامله، حتى فرغنا من العشاء.

- تعال نعد ثروتي

أخرجت حافظة نقود بوعلام من الحقيبة، وتهالكت إلى جنبه على الأريكة.

- نقود.. نقود كثيرة.. مبلغ كبير جداً، أنظر أنظر، إنها كلها لي كلها، عدها عدها.

إلا أنني ترددت في تسليمها له، حين مد يده ليتناولها، وخالجني الندم، واستغبيت نفسي.. هكذا بسرعة، إمنح هذا الغريب كل هذه الثقة؟ كثيرا ما تروي جارتنا، أن الرجال يقتلون النساء من أجل حليهن.. آه. لكنه أعارني منزله، وأحضر الطعام، ولم يشرب من أجلي.. وهذا المبلغ الضخم، ألا يغريه.. وحدقت فيه وفي النقود.. لم يبادر إلى عدها، ولكنه سحب ورقة منها، وراح يعرضها للضوء، ويتفحصها..

- نقودك زائفة يا رمانة.. ستقودك إلى السجن.

مادت بي الأرض وشعرت أنني أسقط في هاوية سحيقة لا قرار لها، وخيل لي، أنني مكتوفة وأن قطاراً ضخما يداهمني، ثم أنني مسجاة في السرير، وبوعلام يضغط على عنقي بكلتـا يديـه، جمد الدم في عروقي، وهوى رأسي على الأريكة.. وبعناء كبير استعطت أن أتنهد.

- أيتها الشقية، ألا تكونين مخادعة؟

- ومن قال، أن نقودي مزيفة؟ ومن أدراني أنك؟

والتقت عيوننا لحظات، كنت على وشك الانفجار، وعلى أتم الاستعداد للانقضـاض عليـه، وافتراسه.. غير أنه خفض بصره، وتناول الحافظة من يدي، وراح يخرج من أوراقها:

- من تكون هذه المرأة العارية، وهذا الرجل الذي يراقصها..

- زوجة القاضي وبوعلام.

- هذا هو بوعلام.. وهذه؟

- زوجة السيد المحترم مجدوب.

- هو ذا، هو ذا.. حضرته. لا حول ولا قوة إلا با .. اللعين الكلب.. المسكين..

- ذلك هو السيد المحترم.

- أس.. أس.. لا تتكلمي عنه.. محترم جدا.. لا تنظري إليه..

- إنني أعرفه جيدا..

- وهذا الأخر.. سبحان ا .. هو.

- السيد القاضي..

- صه.. قاضي القضاة.. هذه أرقام هاتف.. هذه رموز. و.. هذه بطاقة تعريفك.

- بطاقة تعريفي؟ ومن أين جاءته؟ لم تكن لي أبدا بطاقة تعريف.

قلت، وفغرت فاي، أنصت إليه، وهو يقرأ:

- الاسم: رمانة. اللقب: مشتلي. تاريخ الميلاد: (.. ؟) في الجزائر. علامات خصوصـية: لا شيء. القامة: متر وثماني وستون وهذه ورقة ميلادك، آه، ماذا كتب عليها اللعـين.. الرجـاء، أن تصنعوا لها جواز سفر.. اللعين، أين كان يريد إرسالك؟

- إرسالي؟

- قد يكون باعك في إيطاليا أو فرنسا، أو غيرها.

- باعني؟ وهل أنا ملكه؟ لنقدمه للشرطة، لنكشف عن هذا المجرم.

قهقه، وحرك رأسه:

- إنك لا تعرفين السيد المحترم؟ ومن سيحاكمه؟ أقصى ما يهمنا فعله، هو إحراق هذه النقود والصور حالا.. أفهمت؟

تأملته مليا، ونهضت مسرعة إلى الثلاجة في المطبخ، وعدت بقارورة وكأس.

- يشرب بالماء والثلج، سيضرك

قال حين رفعت الكأس إلى فمي، وقد ارتسمت على أنفه سحنة الكبرياء.. لم أبال به، قـذفتها في حلقي، ورحت أسعل، وما أن هدأت حتى أضفت الثانية.. فار الدم في عروقي، ورمقته:

- بأي شيء حكمت على نقودي بالزيف؟

ارتبك، وأخرج ورقة نقدية من جيبه، وأجلسني:

- تأملي هذه.. هنا.. هنا. أترين هذه العلامات، تثبتي منها، إنها ليست فـي هـذه. أنظـري جيدا.. ثم تأملي هذه الخطوط.. تثبتي منها، وانظري هذه، إنها ليست مسـتوية.. حسـبك ا يـا رمانة.

لطمت وجهي، وأجهشت:

- انتهى كل شيء. انتهى كل شيء. ينبغي أن أعود إليه.

- لا. لم ينته أي شيء، ربنا كريم، المهم أن ييأس من العثور عنك.

نهضت لأتسلل إلى الفراش، وقد ثقلت النكبة على قلبي، لم يقابلني غير الهروب من الضوء.

- تصبح على خير.

- تعالي نحرق هذه الأشياء أولا.

قادني إلى المطبخ، وبعد أن فكر هنيهة، أخذ موسى، وانكب على حزمـة النقـود والصـور يمزقها، إرباً إرباً، ثم قادني إلى الكنيف، أشعل النور ورماها، وسحب الماء، فتلولبت ثم اختفـت، وعاد يجرني من يدي في صمت، وكأنما نحن في مقبرة. أجلسني بلطف على الأريكـة وأحضـر كأسا له وماء وثلجا.

كنت قررت صرفه إلى منزله الحقيقي، ولكن عدلت في لا مبالاة وأنا أشعر بأنـه صـاحب القرار النهائي، وأنني فريسة وبضاعة، لا كلمة لي...

شربنا في صمت وكآبة، حتى انتصف الليل، ثم تقاذفنا إلى غرفة النوم نهذي.

- ما أجملك يا رمانة. إنك خطر ماحق..

- وزوجتك هل هي جميلة؟

- عليك اللعنة يا رمانة، لا تذكريني، لا تكوني ضميراً.. هذا المنزل لك، ابق فيه ما تشائين. لا تغادريه أبدا يا رمانة، إنها في باريس.. آه. ما رأيت أجمل منك يا رمانة.

- بوعلام. كل مفاتيح الدنيا في يده. لو لم يكن مجرما..

- عليه اللعنة يا رمانة.. لو يعثر عليك عندي.. آه. لن يعثر عليك أحد هنا.. هيـا نـنم يـا رمانتي.

قبلني في الصباح، قبل أن يخرج، وظل لحظات يحدق في.. يقين أنني أصبحت أكثر سـحرا، وانه لم يكتشف جمالي بعد، فهو لم يركز في نظره منذ وجدني.. وتذكرت أن بعض الذين يـأتون إلى كوخنا، يندمون حالما يحين دفع الثمن، ولو أننا غالبا ما نتقاضاه مسبقا.. كان الضوء الخافت،

والروائح القذرة، تبعث في نفوسهم.. الاشمئزاز.. أما حرفاء بوعلام، فيستيقظون ببلهاء، ويبادرون إلى الشرب.

- القهوة والسكر وعلبة الحليب في المطبخ. سآتيك في منتصف النهار.

خرج، واستسلمت لأحلام اليقظة، أوحي لنفسي، بأنني اسمع هاتفا يأمرني بإغمـاض عينـي، لتمتلئ الغرفة من حولي بالذهب، وان الغرفة امتلأت فعلا، فحملت حقيبة، وقصدت حينا، وشرعت أوزع على كل السكان، ما يكفيهم لبناء منازل حجرية، وإرسال أبنائهم إلى المدارس.. لكن ما كدت أتساءل، عما أفعل بالبقية، حتى انفتح الباب.

- رمانة. رمانة. مبروك ألف مبروك.

انتفضت مذعورة، فوجدته هو صالحا، يلهث ويلوح بصحيفة في يده.

- ماذا؟ ماذا هناك؟

- انظري: لقد ماتا بوعلام ومجدوب.

- صحيح، هل صحيح. آه يا رب.

هزتني الفرحة، فوثبت من السري عارية، وعانقته، بينما راح هو يقرأ ويترجم لـي « فـي الساعة الخامسة، من صباح اليوم الأحد، وقعت مشادة في مرقص ليلي. ذهـب ضـحيتها السـيد مجدوب الرجيمي صاحب المرقص، والسيد بوعلام حمايدية، مـن الوسـط التجـاري. اسـتعمل الرصاص في المشادة. والتحقيق جار».

- آه يا خويا صالح آه.

ضمني إليه وداعب أنفي، وأمسكني من أذني.

- ألم أقل لك إن ربنا كريم؟

- كريم. كريم.

لم أعد إلى الفراش حين خرج، إنما فتحت النوافذ، ووقفت في الشرفة أتأمل الحياة.. السيارات صاعدة هابطة في عجلة، والناس يحثون خطاهم في كل الاتجاهات، والأشجار مخضوضرة مزهوة، والمقاهي مزدهرة، والمتاجر تلتمع.. كانت الحياة في أنشط ما يكون كالدماء في عروقي.. وكأن شيئا لم يحدث.. كأنه ليس هناك أبداً ليل.. رفعت رأسي إلى السماء. فرافقني الصحو، تشقه حمامات من كل لون.. وما أن عدت إلى الداخل، حتى شمرت على ذراعي وانهمكت في العمل، غسلت المنزل والأواني، ونفضت الغبار، ورتبت كل شيء، وغسلت بعض ثيابنا الداخلية، وسقيت مزاهر جافة كانت في الشرفات.. وكنت أثناء كل ذلك، أترنم بمقطع أغنية *أمّا وسيدي عابد.. أما يشعشع نوره*. وبين الحين والآخر يتراءى لي بوعلام ومجدوب يتصارعان في زاوية تحت الأنوار الحمر الخافتة، ويقتتلان من أجلي.. بوعلام يسأل أين أخفيتها أيها الأصلع، أين رمانة، ومجدوب يقسم بأنه لم يرني...

آه. لو لم يكن بوعلام تاجراً.. .

أعود إلى أغنيتي، وأنفعل معها.. وأنسى كل شيء، حتى انتهيت من آخر عمل، فوقفت في البهو، ألقي نظرة على مجموع المنزل، وقد بات نظيفا مرتبا، كما لو أنه لعروس.

- لم أسأله ما إذا كان ملكا له، أم يدفع الإيجار.

قلت، وأنا أمني نفسي بأن يصبح لي، أعيش فيه مع الفايزة والربح.. ومن يدري، قد أجاب له زوجا طيبا فاضلا.. لا يهمني أن يكون شابا، أو كهلا أو شيخا.. فقط لا يكون تاجرا أو سمسارا، أو صاحب مراقص.. أنجب أطفالا.. أريدهم ذكورا، أريدهم رجالا يحمونني من الذل حين يموت زوجي...

انفتح الباب، وأنا في البهو ما أزال أحلم، وانبعثت صفرة إعجاب.

- ربة بيت بارعة.

وضع ذراعه على كتفي، وسار بي إلى المطبخ، ووضع السلة فوق المنضدة، وخاطبني:

- كل ما يلزم، شمري على ذراعيك، واطهي طعامك بنفسك. هناك اللحم وكل ما يلزم.

- شرط أن لا تأكل معي.

- عجيبة.

- لأني لم أطبخ اللحم قط.

أضفت، وفي صوتي تكدر.. يوم مات والدي، اشترى لنا البرادعي أربعـة أرطـال، ويـوم تزوجت أختي، ذبح جديا.. في الأعياد كان أبي يحمل خنجرا وحبلا، ويقصد المدينة. ليذبح أكباش السادة المحترمين، ويعود في المساء بصدقات، نقتسمها مع الجيران.

- ما لك شاردة يا رمانة ؟

أعدت عليه كل ما خطر لي، فانتصب وقال بجد وتأثر:

- ذلك أن حيكم لا يهتم بالتعليم.

قهقهت، وقطب في سذاجة، وانحنيت على السلة وأنا أتمتم:

- ما يخص الكلاب غير السروال.

- سأتركك. أمي وأبنائي لا شك.. سأعود في المساء.

- لكن ينبغي أن نتفاهم.

- في ماذا؟

ترددت قليلا، ثم جمعت أنفاسي، وألقيت الموسى، وقطعة اللحم من يـدي، واسـتندت إلـى المنضدة:

- في الوضعية. أمامي أمران، إما أن ألتحف وأعود إلى حينا لأشتغل مع أختـي، وإمـا أن أستقر في المدينة.. وهذا يتطلب...

وقاطعني:

- سكنا منفردا، أو عملا في أسرة.

أومأت برأسي نعم، وأضفت:

- أريد أن أهتم بأختي، وأدخلهما المدرسة.

- مشروع، فكرة.. لم أر فتاة طموحة مثلك.. لكن.. أنت نفسك ما تزالين عرضة.. إنه لا يوجد بوعلام واحد في البلد.

تهالك على المقعد وأطرق يفكر، وبعد لحظات همس، دون أن يرفع رأسه:

- فكرة رائعة، أزوجك، عندنا عمال كثيرون في البنك غير متزوجين.. ساجد لك زوجا..

انحنيت، ورفعت يده إلى فمي، قبلتها وبللتها بدموعي، وغصت الكلمات في حلقي، ولم أتفوه بشيء.

- ستبقين هنا، حتى أجد لك زوجا، ثم آخذك إلى منزلي، وتخرجين من عندي عروسا رائعة، لا تفكري في حيك وأختيك، حتى نحل مشكلك أولا.

ربت على كتفي، وانصرف مبتهجا، انهمكت في إعداد الطعام وفكرت أن بعض السادة المحترمين طيبون، ولعلهم كلهم طيبون، وأن كانوا يخونون زوجاتهم.

في الليل عاد، فكنت منطلقة لا أشعر تجاهه بأية عقد، وزال عنه بدوره اضطرابه، وانمحت من أنفه سحنة الكبرياء.. عرضت عليه أن أناديه من اليوم بأخي صالح، فراق له ذلك. وأراني صور ابنه وابنته، وقال إن أمهما ستعود من فرنسا في الأسبوع القادم، وطلبت منه أن يأتي بابنيه نهار الغد، فاحتج بأن البنت في شهرها الخامس ما تزال، أما « مراد » فسيصحبه معه في مساء السبت، ونخرج جميعا إلى النزهة في الغابة، ففرحت أيما فرح.. كنت قد التصقت به دون أن أشعر، وأنا أتأمل الصور في يده، فأبعد ذراعه عن صدري بحركة انفعالية، ثم ابتسم:

- ابتعدي عني أيتها الشيطانة. ألا تتصورين خطرك. إنك جهنم.

- ألست أخي صالحاً؟

احمرت وجنتاي، واعتراني الخجل، وأمسك بأذني يقرصها، ثم ضم رأسي بين راحتيه وقرب وجهي إلى عينيه، وانهمك لحظات يحدق في، و أغمضت عيني.

- هيا نذهب إلى السينما.

في رمضان، كان أبي يصحبا إلى المدينة في الليل، لنتفرج في الساحات على سينما العسكر، رغم البرد القارس، فإننا نظل متعلقات بالصور في الحائط حتى تنمحي.. خطر لي، وتأملته:

- هيا.

- ارتدي ثيابك.

سارعت إلى غرفة الحمام، عطرت إبطي ووضعت في عنقي عقد بوعلام الذهبي، وارتـديت معطف زوجة القاضي الجلدي، وأطلقت شعري في ظفيرتين، واحدة على صدري والأخرى علـى كتفي، ومررت خيطا لينا من احمر الشفاه على شفتي، واكتحلت، ومررت مسحوقا خفيفـا علـى وجنتي، ثم التحفت، وجئته.

- لا. لا. انزعي اللحاف.

نهض، وسلخه بانفعال، تأملني لحظة، وتناول ظفيرة شعري، وقربها إلى أنفه، ثم وقف إلـى جانبي.. كان أطول مني بقيل.. وضع يدي في ذراعه، وأدخل يده في جيبه، وفحصني بدقـة مـن قدمي إلى رأسي، وعندما التقت عيوننا ابتسم، وهمس كالحالم:

- ولا تتجاوزين السادسة عشر.

- نعم.

- ونبت في حي قصديري.

- نعم

- وتبغين عيشة شريفة.

- نعم.

- وتنادينني أخي؟

- نعم.

استفاق من غفوته، فخاص ذراعه من يدي، ونظر إلى ساعته، وأمرني بالالتحاف، وخرجنا، انطلقت بنا السيارة، ارتفع أنفه في كبرياء، حدقت فينا النساء والفتيات في الشوارع.

- يقين إن هذه الشوارع دافئة بكل هذه الأنوار.

انفلتت منه ضحكة خافتة، واستمر في السير، طفنا عدة انهج، ثم خرجنا إلى حي هادئ خافت الأنوار، تتناثر فيه "الفيلات" والأشجار الباسقة.. هدأ قليلا من السرعة، وتثبت من منزل معين، ثم انطلق، وعندما نزلنا، اقترب مني، وأدخل يده في جيبه، فتأبطت ذراعه وراح يختـال، والـدخان يتصاعد من أنفه.. وفي القاعة، ظل يعتصر يدي ويتنهد، وبين الحين والآخر يترجم لـي بعـض الكلمات.. كان الفلم غراميا ولا شك، فقد كان فيه قبلات كثيرة، لم تؤثر فيّ مناظره، وقلـت فـي نفسي، إنهم يصورون الأشياء التي يندمون على فعلها.. وفي طريق عودتنا سألني، هل أحببت بعد، فأجبته ببساطة، بأنني أحببت أبي وأمي وإخوتي، وأنني استطبت بوعلام، وأقدره هـو لإنسـانيته، وأعشق جمال وجهي، كلما قابلني في المرآة.

- فقط.

- منذ شهرين ونصف فقط صرت امرآة.

وعندما عدنا إلى المنزل، احترت كيف أتعامل معه، هل كـأخ، أم كصـديق، أم كـزوج، أم كمحسن، أم كسيّد وأنا خادمة...

كانت الفتيات والنساء في حينا، يتحدثن كثيرا عن الرجال، ويروين أقاصيص العشق والغرام، ولكن دائما يؤكدن أن المحبين هم الذين لا يقوى أحدهم على فراق الآخر.. وأن كثيرا مـا تكيـد النساء للرجال، فيسقطون ضحايا وصرعى، ويفعلن بهم ما يشأن.. ومع كل ذلـك، فـإن بطـلات قصصهن، خاليات الذهن من مشاكل الحياة.. لا يتصرفن إلا بدافع الغيرة أو الحسد أو الانتقام.. ولا

يروين قصصهن، وإذا ما فعلن، فإنهن لا يتناولن سوى الجانب التجاري، ويربطن كل شيء بالقوت والملبس والدواء.. ترى لو أروي لهن قصتي، هل يصدقنني أم لا؟

تواصل شرود ذهني.. هذا المخلوق.. أخي صالح، كما اقترحت أن أناديه، ماذا أفعل به؟ كيف أتعامل معه؟ أستسلم له كالنعجة الحلوب.. حتى يجد عاملا من عماله في البنـك يزوجنـى بـه، وأستريح، أطهو له الطعام، وأذهب معه إلى السينما، أو إلى الغابة، وأغسل قدميه، وأرتب المنزل، وأنام معه.. أفعل كل ذلك ببساطة كما لو أنني أخدمه، أو أدفع له ثمن إحسانه؟ أم أحاول إقناعـه، بأنني أرغب أن أكون كأخته الفعلية، عليه نحوي واجبات ومسؤوليات، وأن من صالحه، أن يتفرغ لزوجته وأبنائه وأمه وعمله؟ أم فقط، أعمل على جعل الساعات التي يعيشها معي، مرحة ممتعـة لذيذة، أتغنج، وأسقيه، وأرقص وأغني له، وأعضه وأتمنع عنه، وأطلب منه أن يقدم لـي الهـدايا، ويقترح علي تسريحة شعري، وأبدي إعجابي به، بمناسبة وبغيرها.. أقدم له كل الخـدمات التـي يمكن أن أقدمها لزبون ثري أريد سلبه.. إنني أستطيع ذلك، أستطيع إرغام نفسي على ذلك. ولكـن معنى هذا، أنني عدت إلى الشغل، وأنني راضية بالشغل.. فضلت أن أسأله هو، ولو كان في ذلـك إحراج له.. فأطرق وفكر كثيرا، ثم أجابني:

- اسمعي يا رمانة.. لقد نغصت عليا الحياة. وجعلتني وجها لوجه، أمام كل ما قرأته في كتب الأخلاق. كانت حياتي هادئة مطمئنة، أعيش في هناء وسعادة مـع زوجتـي وأولادي، ولا أبـالي ببعض المغامرات التي أقوم بها من حين آخر.. كنت لا أفسر الأشياء. أصادف بنتـا أو امـرأة، أصطحبها إلى هنا، أقضي معها ساعات، ثم أصرفها، دون التفكير في أمرها، ودون أن ألوم نفسي، كنت أنوع حياتي لأقضي على السأم، ولأظل باستمرار، واثقا من نفسي. ولكن ها أنت تطـرحين علي مشاكل، هي من اختصاص غيري. من اختصاص رجال الدين، والأقدار والمشيئات الإلهية... حقا إنك لممتعة، وإن جمالك الفتان لا يشبع.. ولكن مع ذلك، فأنت بالنسبة لي إحراج كبير..قبل أن نخرج بدوت لي، كالعملات الأجنبية، كالذهب المختزن في بنكي: تليقين للاستعمال، وتعزين علي.. ولكنك لست لي، بل مسؤولية ثقيلة ملقاة على عاتقي.. أتفهمين؟

تمنيت لو لم أكن متزوجا، و كنت في سن أصغر، لأتخذك عشيقة.. لقد قـررت أن أعينـك، أنفق عليك، حتى أزوجك، وأظل أتفقدك. وهذا لا يعني أنني أتصرف بإرادة حرة، أو أنني محسن.. لا. إن هناك أشياء كثيرة تسيطر علي، أهمها ربما رغبتي وسحرك، وشعوري بالذوبان في روعة فتنتك، في شعرك في أنفك في عينيك في ذقنك في عنقك في شفتيك في طولك في اسـتقامة كامـل جسمك.. سأزوجك. أمنحك إلى رجل آخر. ولكن، سيظل يخيل لي إلى أبد الآبدين، أنك تعيشـين معي.. إنني لم أحبك يا رمانة، لم أعشقك، بعد ولعل ذلك لن يحدث أبدا.. ولكن ربما أنني أحببتـك وعشقتك قبل اليوم قبل أن أراك، ربما أنت الهدوء والطمأنينة والاستقرار، ربما أنت العملة الأجنبية والذهب، ربما أنت اللحن الذي أود سماعه.. أكذبك إن قلت لك أنني لا أتشهى التهامك..

وظل يتحدث بينما أصغي إليه بإمعان، وأتفاعل مع حركات يديه، ونبرات صـوته، وأعبـث بشعري. وحين فرغ ابتسمت له، وعرضت عليه أن نحتسي كؤوسا، فوافقني:

- من الأفضل يا رمانة، أن لا يصحو المرء من السكر ما دمت معه.

انسلخت أسابيع، دون أن يحدث جديد، أقنعني بالتخلي عن أختي، مؤكدا أنه لا يمكن إنقاذ كل الأمور دفعة واحدة، ورغم أن زوجته قد عادت من فرنسا، فإنه كان يسهر عنـدي حتـى سـاعة متأخرة من الليل، وأحيانا يبيت، وفي أيام راحته يصطحبني ومرادا إلى النزهة في الغابات، وطاف بي مرات في الشوارع سافرة، وذراعي في ذراعه، واشترى لي ثيابا وعطورا ومساحيق، وكـان يفضل أن يتغدى ويتعشى معي.. تركته يقرر كل شيء وحده، ولـم أشـأ إحراجـه أو إزعاجـه، وشعرت بمسؤوليات وواجبات نحه، كأخته، كأمه، كزوجته.

لا. أكذب.. شعرت بضرورة الاحتفاظ به، والاستيلاء عليه.. وكنت في أوقات وحدتي، أحلل الأشياء وأناقشها انطلاقا من أن الربح الكثير، خير من الربح القيل، والربح السريع، خير من الربح البطيء.. وسرعان ما أصبح يخضع لي، عبدا وأسيرا في قبضتي.. جاءت أختاي، دخلـت ربحـا المدرسة.. وسألني ليلة:

- يا رمانة إذا وجدت لك زوجا، هل تقبلين مغادرتي؟

- ولم لا.. لقد مللت أكل الجيفة.
- ولكن.. ألفتك يا رمانة.
- كما ألفت زوجتك وأبناءك وعملك وسيارتك.
- أريد أن أتزوجك يا رمانة..
- ولكن لك زوجة.
- إلى الجحيم، يسهل إعادتها إلى بلادها.
- الأمر أمرك، فأنا أيضا ألفتك.. و..
- هل صحيح.. أتميها.. أتممي الجملة.. هل تحبينني؟
- لا أقبل معاكسة أحد في الشارع، وأشعر بالشوق إليك، كلما تأخرت، وأحب مراد ابنك.
- أمهليني أسبوعا، أصفي فيه الحساب مع زوجتي.. ثم..
- لك أكثر من أسبوع.

لم يعد يغادرني، لا هو ولا مراد ابنه، ودقت الباب امرأة حيتني بلطف، وخاطبتني بلغة فرنسية، تركت لي رسالة وقبلتني وانصرفت.. سلمتها له. فقرأها مبتهجا..

"حبيبي، لا أخفي عنك أنني أحبك، وأحب مراد وصفية وأمك ووطنك ولكن لا يسعني إلا أن أغادرك.. وداعا".

- إلى الجحيم.

قال، وفي اليوم الثاني خرج ولم يعد، جاءت أمه تتظاهر بالحزن سلمت لي عقد إيجار المنزل، ومبلغا ماليا، وأعلمتني أنه انتقل إلى جوار ربه، إثر حادث... وأنه ظل حتى نفسه الأخير، يلهج، رمانة. رمانة.. ثم حملت مراد، وتركتني أبكي.. وصوت بوعلام يتردد في رأسي.. الفقراء ميتون، من يوم ولادتهم.

انقضت، بعد شهرين تركة صالح، فوجدت نفسي في الشارع، أنتقي الزبـائن، وراعنـي أن يكون كل الناس، زبائن، يمكن اصطيادهم في كل لحظة.. وذات أمسية، لفت انتباهي، فـي نهـج صغير، قليل الحركة والمتاجر، كهل بدوي رائع، طويل القامة، عريض المنكبين، أسـمر، غلـيظ الحاجبين، جميل اللحية، طويل الشاربين، عليه برنس وجبة وعمامة، وفي يـده حقيبـة صـغيرة، وعلى عينيه نظارات، خيل لي أنه بسمرته وهيكله، بوعلام، وقلت في نفسي، مـا أروع أن أجـد بوعلاما غير تاجر ولا سمسار، وغير مدنس، وخيل لي أيضا، أنه بلباسه ولحيته أقرب إلى سكان حينا، وأقرب إليّ من سكان المدينة الحجرية، المنارة بالمصابيح الكهربائية...

كان يسير بمهل، وينظر حوله كأنما يبحث عن نزل، ما إن اقتربت منه، حتى سألني:

- هل تعرفين نزلا قريبا من هنا، يا بنيتي.
- نعم. اتبعني.

سرنا خطوات، ثم سألته:

- ألا تشرب قهوة معي؟
- أين؟
- في منزلي، قبل أن يعود زوجي من العمل.
- وهل تسكنين بعيدا من هنا؟
- لا في النهج الذي يلي هذا..

قدته إلى سكني، وكانت الساعة الرابعة إلا ربعا، فرجوته أن ينتظرني في غرفة نومي، حتى أعود بأختي من المدرسة، أغلقت الباب خلفي حتى لا يفلت.. وعندما عدت بربح، فوجئت به فـي البهو: يسير على يديه ورجليه، والفايزة تقهقه فوق ظهره، وهو يغني بصوت خافت:

- آش يا بغالي، وصلني لاخوالي، واخوالي في توسه، ذبحوا لي فلوسة..
- من هو هذا الرجل يا لاله؟ أهو عمي صالح؟

- لا يا عزيزيتي. خالنا جاء من البلاد. سلمي عليه.

أنزل الفايزة واعتدل مبتسما، وحمل ربحا بين ذراعيه:

- هيا سلمي على خالي، أواه ما أروعك!

لأول مرة منذ استقدمتهما، تريان رجلا عندنا، بعد صالح، الذي سألتني عنه كثيرا، كنت أغلق عليها الغرفة، وألح على ضيفي أن لا يرفع صوته، وأن يعجل بالذهاب، لكن هذا البـدوي، رغـم أنني أكدت عليه أن لا يتحرك من غرفة النوم. كشف عن نفسه، ولم يتمالك عن اللعب مع الفايزة، وها هو يحمل ربحا ويقبلها.. فليكن خالنا ولنلعب معه جميعا، ونتنزه معه في الحـدائق، إن طـال بقاؤه معنا.. خطر لي، ورفعت بصري إليه، وفوجئت به، غير البدوي الذي أغلقت عليـه البـاب، كان شابا يافعا. لا يتجاوز على أكثر تقدير السابعة والعشرين، حاد النظر، خفيف الحركات.. تأملت رأسه العاري، ففوجئت أيضا، بأن لون شعره يخالف شعر لحيته. واصطدمت.

- لقد أوصيتك بعدم الخروج من الغرفة؟ ماذا سيكون موقفي مع زوجي حين يطلع؟

قلت وأنا مبهوتة، فابتسم:

- لقد أخبرتني الفايزة بأنكن وحدكن.. لماذا تكذبين؟

ولم أعلق بشيء.. إنما قدت الفتاتين إلى غرفتهما، فتبعني، وقصد رفوف الكتب.

- هل قرأت كل هذه الكتب؟

- إنها لزوجي.

- وأين هو؟

- رحمه ا .

- وبقيت وحدك؟

- نعم.

- وهل تقرئين؟

- لا. أختي ربح تقرأ.

داخلني الريب في أمره، ورغم أنني آليت أن لا أحرج ضيوفي بأي سؤال عـن أشخاصـهم. فإنني سألته:

- وهل أنت بدوي بالفعل؟

كان قد نزع برنسه، وجبته وعمامته، فانمحت آثار كل البداوة عنه، لهجته نفسـها، تغيـرت فأصبحت مهذبة، بعد أن كانت ريفية خالصة.. ثم كيف يقرأ الكتب، لو كان بدويا...

- إنك مريب.

أضفت، لما لم يجبني.. لكنه ظل يدقق في الكتب، يحمل واحدا يتفحصـه، ويضـعه ليحمـل آخر.. وكانت الفتاتان متعلقتين بثيابه وهما تلهجان:

- خالي. يا خالي.

قبلهما. وانتقى كتابا، وانسحب إلى غرفة النوم فلحقته وجلست قربه، انتظر بادرة، لأفرغ منه، وأصرفه في سبيل حاله، بعد أن خاب أملي فيه.. إلا أنه استغرق في القراءة، انشغل بالكتاب عني، فتركته وعدت إلى أختي، قدمت لهما حليبا وجبنا، وجئته، والغيظ يملأ قلبي. تخلصت من بوعلام، فوقعت في قبضة بوعلام آخر.. لا يوجد بوعلام واحد في البلد.. ولكن هذه المرة، سأقضي عليه، قبل أن يقضي علي، سأسبقه.

- أيها السيد، لقد حان أن تنصرف.

- آه هذه أنت. تعالي.

تربع فوق السرير، وخاطبني دون أن يمسسني:

- إذا كنت حقا تعيشين وحدك، وليست لك زيارات من أقارب وأصدقاء أو جيـران، فـإنني اطلب منك أن تأذني لي بالبقاء فترة.

- كم يوما؟

- ثلاثة أو أربعة، وربما أسبوع.

- ولكن ينبغي أن أكسب قوتنا.. أتفهم؟

- كم تطلبين؟

- أنا في حاجة إلى ثمانية آلاف.. مبلغ الكراء، أما مصروفنا فخمسمائة في اليوم. وقد تكون الطوارئ.

- فقط.

قال متعجبا، ومد يده إلى جيبه يخرج النقود.. فخطر لي، أنني إذا لم أصرفه اليوم، سـأعجز عن صرفه يوما آخر، وأنه من الأفضل أن لا أحيد عن الخطة التي رسمتها، وصممت أن أصرخ في وجهه وأطرده غير أن نبرات صوته، كانت توحي إلي، بأنه لا يريد سوى التخفي عندي مـدة، فلم أقو على مجابهته.. وتصورته يحمل الفايزة أختي على ظهره ويغني لها، ويقبل ربحا كما لـو أنها ابنته...

- هذا ثمن الكراء. وهذه نفقة عشرة أيام، وهذا مقابل أن لا يطلع أحد على وجـودي هنـا، وبعض خدمات سأطلبها منك.

- أيها السيد، من تكون؟ هل أنت لص أم تاجر؟ ماذا تريد عندنا؟ إننا ولايا، مسالمات..

تساءلت دون أن أتناول نقوده، فابتسم ورد:

- لا ذا ولا ذاك، لن أوذيك، ولن أجلب لك أذى، أريد فقط أن أستريح من الضجيج والمشاكل بضعة أيام..

- ولماذا صبغت وجهك وتنكرت..

- آه. الأمر بسيط، لكي لا أعرف.. متى مات زوجك؟

حول الحديث.. رمقته. وعجبت بلا مبالاته بي، وكأنما عشت معه دهرا. وتأكدت من أنه ليس لصا ولا تاجرا، ولا سيدا محترما، ولا سمسارا ولا بدويا.. لكنه قد يكون شـرطيا يبحـث عـن مسروقات أو عن أوكار البغاء.. ومع ذلك، يبدي من الحنان نحو أختي، ما لم يبده حتـى صـالح نفسه.. ورغم كل شيء، يجب أن أحتاط من كل الرجال.

- منذ شهر ونصف فقط.

- ولم يخاف لك أي ثروة، رغم أنه كان نائب مدير بنك؟ أكان فقيرا إلى الحد الذي يتركك في مثل هذا السكن المتواضع؟

فكرت أنه نقب في الأوراق قبل عودتي، وأنه عرف اسم وعمل صالح.. ولكن هذه الملاحظة التي فطن إليها، ألجمتني، فلم أحر جوابا.. واستأذنته في الانصراف لتسخين العشاء، وسألته هـل يطلب أكلا معينا، وهل يريد قهوة أو شايا بعد الأكل، فأكد لي انه لا ينبغي أن أتحرج مـن شـانه أبدا، وأنه واحد من العائلة ثم انصرف واستغرق في الكتاب، حتى ناديته للعشاء.

- لا. يعشيها خالها.

وجذب مقعد الفايزة نحوه، وظل يأكل لقمة، ويقدم لها أخرى، ويقبلها وأنا أنظر إليه في حـذر واغتياظ لتجاهله لي بالمرة.. ولما فرغنا لبث مع أختي، يقص لهما حتى نامتا، فتسلل وأتاني...

ناوليني كأسا من المشروب الذي في الثلاجة..

وعندما عدت بكأسين مع القارورة، تمعن في وجهي، وانفرجت شفتها، عن أسنان جميلة.. لم أشرب منذ غياب صالح، ولكن بدا لي أن مجاملة هذا الضيف ضـرورية، وقـررت أن لا أنهـي كأسي...

- في أية ساعة تعودت النوم.

- لعلك تريد أن تسهر.

- لا أبدا، تصرفي كما لو كنت غير موجود.. أنهي فصلا من هذا الكتاب، ثم أغسـل قـدمي وأنام، لا تهتمي بي أبدا..

- طيب.

احتسيت بانفعال كأسي، ونهضت لأنزع ثيابي، وأستلقي في السرير، غير أنه أقعدني..

- لا أنتظري، حتى تحدثيني قليلا عن حياتك اليومية.

- ليس فيها ما يذكر، أعد القهوة، وألتحف لأوصل ربحا إلى المدرسـة، وأعـود للانشـغال بالعمل المنزلي، وفي المساء، أخرج لاقتناص ضيف، إن كنت في حاجة إلى نقود، وأصرفه قبل أن أعود بأختي.. ثم أنام.. هذه حياتي.

- ومن يزورك غير الضيوف الذين تستجلبينهم؟

- لا أحد. وليس لي جيران..

- رائع، ومن تزورين أنت من أقاربك أو أصدقائك؟

- ليس لي أحد، سوى أختي الكبرى، لا أزورها ولا تزورني.

- جميل جدا. ردي هذه القارورة إلى الثلاجة، ونامي يا صغيرتي.

امتثلت لأمره، أعدت القارورة، انتزعت ثيابي، دخلت تحت الغطاء، بينما هو يرتشف كأسـه ببطء، ويتمدد في الأريكة، ويقرب الكتاب من عينيه.. فكرت قليلا في أمره، ثـم داهمنـي النـوم بسرعة، أثرت في الكأس التي تناولتها، تأثيرا لم أعهده.. وعندما استيقظت.. راعني تبدل ضـوء الغرفة.. رفعت بصري إلى السقف، فوجدت المصباح منطفئا، وأدرت رأسي أتتبع مصدر الضوء كان بثيابه ما يزال. منكبا على الكتاب، وفي يده قلم يسطر به الورقة.. وعند رأسه شمعة توشك أن تأتي على نفسها... أردت أن أناديه، فتذكرت أنني أجهل اسمه.. واكتفيت بأنة، وكأنما أحتج، فلـم ينتبه إليها...

- ألم تنم بعد؟ كم الساعة؟

- آه استيقظت، هل أزعجك الضوء؟

ونظر إلى ساعة يده.

- الخامسة.

- ناولني شربة ماء من فضلك؟

وضع راحته على جبيني لحظة، ثم تناول يدي، وراح يجس نبضي، وينظر إلى ساعته، ثـم قدم لي كأسا من الماء !!!

- أطبيب أنت؟

- أعرف بعض المبادئ..

لماذا نشعر عندما نستيقظ من النوم، بالمودة لمن يكون قربنا، وبضعف نفوسنا، تساءلت فـي نفسي، وأنا أنظر إليه بعطف وود.. ثم سألته:

- وما اسمك أيها البدوي المزيف؟

- خالي. اكتفي بهذا الاسم.

ابتسم، ووضع الكأس على المائدة، ونزع معطفه وجواربه وأطفأ الشمعة، واستلقى إلى جنبي ببقية ثيابه...

- لا توقظيني حتى تعودي من المدرسة.

انتظرت أن يلتف نحوي، لكن سرعان ما انبعث شخيره.. وكأنما نام منذ ساعات فاحتضـنته، وحشوت رأسي في ظهره، ورحت أتشمم رائحته، كما لو أنني عند أبي في كوخنا الحقير...

في الصباح تسللت بحذر، وأوصيت الفايزة أن لا تحدث ضجيجا يوقظ خالها ثم أوصلت ربحا إلى المدرسة، وعدت مسرعة، فتحت الباب بحذر، وحملت النقود والسلة، واصطحبت الفـايزة...

قصدت مكتب البريد، فدفعت مبلغ الإيجار، ثم عرجت على السوق، اشتريت لحما وحاجيات.. وعدت.

- صباح الخير.

بادرني في البهو، وفنجان القهوة في يده، ثم حمل الفايزة في ذراعه وراح يلاطفها.. طلبت منه أن يركبها على ظهره، فأجابها حتى المساء وظلت في ذراعه تعبث في لحيته.. فتركتهما في قاعة الجلوس، التي تحولت إلى غرفة نوم البنتين، وذهبت إلى بيت النوم.. فوجئت بالسرير مرتبا، وزجاج النافذة مفتوحا، بينما الستار الخشبي، نصف مرتفع.. أول رجل صادفته في حياتي، يهتم بفراش نومه.. وأثر ذلك في نفسي.

- لماذا أتعبت نفسك مع الفراش يا خالي؟

- أوف يا ابنة أختي ولماذا نترك الأمور في فوضى؟

رد، ثم التحق بي، أغلق الباب خلفه، ودنا مني.. ظننت أنه سيحتضنني، وعجبت لهذا التحول الفجائي، وهذا الشذوذ الغريب.. جمدت في مكاني، أنتظره، فوضع يده على كتفي، وقطب جبينه، وتأملني جيدا، وهمس:

- أريد منك خدمة، لن أنساها لك.

- أنا تحت الطلب.

راح يشرح لي مهمتي، وأنا أصغي إليه بإمعان، وازددت حيرة في أمره، وما إن فرغ، حتى التحفت وخرجت. قطعت عدة شوارع ودروب، كما وصف لي، وعندما حللت بالمكان الذي حدده لي، أخرجت نقودا، ورحت أتظاهر بعدها، فاقترب مني متسول ينحني على عصا بيضاء، ويضع على عينيه نظارات مهشمة:

- يا أحباب سيدي عبد الرحمان.

أخرجت الورقة من صدري، وضعتها في يده مع قطعة نقود، وانصرفت دون أي تردد كمـا أوصاني، وانقطع صوت المتسول.. وثبت إلى حافلة نقل، كي أعجل بالعودة، وتهالكت على المقعد ولم أعر اهتماما، لمغازلات الركاب المتعددة.. كانت الساعة الحادية عشر عندما دخلـت لأفاجـأ برائحة الطعام تفوح من المطبخ، وخالنا عند المرآة، يبدل شكل لحيته، وشـاربه، ولـون شـعره، ونظارته.. وما عرفته إلا بعناء.

- تعالي يا رمانة، أدني مني...

تناول يدي، وراح يمسك أصبعي، كمن سيعد:

- ماذا فعلت أولا بأول؟

سردت له بالتفاصيل، كل ما قمت به، فتنفس ملء رئتيه، وربت على كتفي..

- رائع جدا.. أرحتنا. ألف شكر. والآن هل تفضلين أن أذهب، أم أمكث فتـرة أخـرى، لا تهتمي بنفقتنا وثمن الإيجار.

- لا تذهب يا خالي العزيز. ابق عندنا دائما.

بادرت فايزة وهي تتعلق بثيابه، ففكرت هنيهة، ثم أجبته:

- كما يحلو لك.

- سأبقى إذن يا الفايزة..

ثم قادني جانبا، وهمس في أذني:

- هل تتداوين، بعد مخالطة الرجال؟

- لا.

- إذن، عندما تخرجين أطلبي من صيدلي، الأدوية التي في الورقة.

- أمرك في غاية الغرابة يا خالي.

- في الليل، أروي لك بعض ما يزيل حيرتك.. هيا الآن إلى الغداء.

تغدينا وأرقدت الفايزة، واستلقيت في الفراش، أستريح، وانهمك هو يلـتهم سـطور الكتـاب. وداهمتني الخواطر.. لن أخرج اليوم إلى التسكع.. ما أروع ذلك.. عندي من النقود مـا يكفينـي شهرا، ثمن الإيجار مدفوع.. وهذا الغريب يقول لا تهتمي لنفقتنا...

وطنطنت:

- آما وسيدي عابد.. آما يشعشع نوره..

- من أعماق الشعب.. من جذوع التاريخ..

ردد مبتسما، وهو يرفع رأسه عن الكتاب، وشعرت بالخجل، وبدفء يتصاعد إلى وجنتي، ولم أتمالك عن الابتسام، رغم أنني لم أفهمه...

- أيتها الخاملة. تعالي هنا تعالي.

لبيت أمره، وتقاذفت جنبه على الأريكة، والتصقت به.. لم يداعبني، ولم يقـرص أذنـي، أو يمسكني من ذقني.. أخرج ورقة، وأعطاني قلما، أمرني بإمساكه بين أصابعي، وسواه جيـدا، ثـم تناول يدي، وخط على الورقة وهو يردد:

- أ أ.. انطقي، انطقي، هذا هو الحرف الأول من الحروف الهجائية.. ينبغـي أن تتعلميـه.. أعيدي كتابته مائة مرة.. هيا أسرعي، ها هي المائدة...

اهتزت أعطافي، وارتج قلبي في صدري، ورحت أضحك دون إرادة، كما لو أنني أمد يـدي لأمي ليلة العيد لتضع عليها الحناء.. وارتفع ضحكي أكثر، والتصقت به، وأنا أرتجف...

- الأمر في منتهى البساطة.. هيا أيتها الخاملة، أكتبي وانطقي في نفس الوقت.

كتبت حرف أ مائتي مرة، لا مائة كما طلب. وكلما سودت سطرا، أهبشه من ذراعه، وأطلب رأيه في جمال خطي، فيؤكد بأنه رائع. رائع جدا.. أنكب على المائدة، أكتـب وأنطـق وأضـحك

مزهوة معجبة، نسيت تماما أنني أنثى، إلى جانب رجل، وزالت الكلفة، والحشمة، وشعرت للمـرة الأولى، أنني مع رجل نزيه، وامتلأ قلبي بحب الحياة.

- تعلي الآن. أ. عندما نضع عليه هذه النصبة. أ. كأحمد، وأسد، وأمل. وعندما نضـع هـذه الرفعة، ننطق به (أُو) أُمة، أُخت، أكتبي الألف بالرفع، وانطقي أُو.. أُو.. هيا أسرعي، مائة مرة

شغلته عن قراءة الكتاب، باستشاراتي المتكررة، وكان يبتسم في صبر وأناة عجيبـين. ولـم أنقطع إلا حين دنت ساعة العودة بربح، فذهبت وعدت مسرعة، وأنا اهمس أً. أُو..

- هل اشتريت الدواء يا رمانة؟

- نعم يا خالي.

قال، وهو يقبل ربحا، ثم أدخلني إلى غرفة النوم.. فتح رزمة الدواء.. وراح يشرح لي:

- اشربي قرصين من هذا، عند كل وجبة، ليومين متتاليين وهذه القارورة، ضعي منها مقدار ملعقة أكل في ماء دافئ، واحتقني به.. هل فهمت. ستزول كل الأمراض والجراثيم، التي يمكن أن تكون قد أصابتك، وإذا ما عدت إلى الشغل، استعمليه مرتين في الشهر، على الأقل.

آمنت بأنه طبيب ماهر، كما آمنت بأنه معلم بارع، وبأنه إنسان طيب جدا، لـيس تـاجرا ولا سمسارا ولا لصا، ولا نائب مدير بنك، ولا قاضيا ولا مجرما.. تبقـى مسـألة تنكـره وتخفيـه، والرسالة التي بعث بها للمتسول الأعمى.. سأسأله في الليل...

غسلت أختي، وعشيتهما وأرقدتهما، وتداويت، وأنا أقرأ بصوت مرتفع تارة، وخافـت تـارة أخرى، ثم استدعيته إلى المطبخ، وتعشينا معا، الطعام الذي تبقى من الغداء، والذي طهـاه بيـده، وكان لذيذا جدا، وشريحة لحم شويتها له، فأبى إلا أن نقتسمها.. كان يناديني رمانة، وأناديه خالي، كنت طبيعية معه في كل تصرفاتي، وحركاتي، لا غنج، ولا دلال، ولا تعرية صدر، أو زم شفتين، أو تعطر، وتثن...

- هل تريدين أن تعرف قصتي؟

قلت عندما عدنا إلى غرفة النوم، وجلسنا على الأريكة، فابتسم.

- إذا كان ذلك لا يحرجك.

حملت القلم، أعبث به بين أصابعي، ورحت أحكي له كل شيء، جزئية فجزئية، وكان يتلقف كلماتي بنهم شديد، وقد ارتسمت على وجهه سحابة حزن عميق..

- توقعت شيئا من هذا.. ولكن لم أتصور كل هذه الفظاعة.

علق، وظل لحظات يفكر، ثم أضاف:

- وهل تعرفين السياسة؟

- لا.

- إنني أشتغل بها، أهرب من الشرطة والعسكر، أنا وجماعات كثيرة، لأننا نريد تغيير الأوضاع، نريد القضاء على مصدر كل الآلام، ويتعلم كل الناس ويتداوون ويشبعون، ويسكنون في المباني الضخمة، ولا يذلون، ولا يسيطر عليهم تاجر أو سمسار، أو أي سيد آخر.. إنك لا تفهمينني.

- كلا. إنني أفهمك، ولكن لماذا تتخفون من الشرطة؟

- آه. الأمر بسيط، إنها شرطة الأعداء، والأغنياء، والتجار، والسماسرة.. إننا نحاربها ويوم نقضي عليها، نكون قد انتصرنا.. سنهدم كل الأحياء القصديرية، ونبني مكانها عمارات شاهقة..

- آه.

تنهدت، ثم رحت أقارن بينه وبين صالح، بين حماسة هذا، وسلبية الآخر.. وعجبت كيف يكون مثل هؤلاء، ويظل حبينا غارقا في الآلام واللامبالاة.. ولا يتقدم لمساندتهم، وسألته فأجابني:

- حتى يفهموا، حتى ننجح في تنظيم صفوفهم، وصدقيني، إن هذا العمل صعب جدا وشاق، إنهم وكل فقراء بلادنا، تعودوا منذ قرون الاستسلام والخضوع للأسياد والأغنياء والتجار يتصرفون فيهم كما يشاءون.. إنهم بضاعة أولية، في يد السماسرة والتجار، الذين بدورهم، بضاعة أولية في

يد الأعداء، والمستغلين الكبار، هل تفهمين.. إن بوعلام، ومجدوبا، وصالحا، صادقون في موقفهم من الحياة، ذلك أنهم يخضعون لظروف معينة، ونحن نريد أن ننقذهم، وننقذ كل الناس، من هـذه الظروف بتغييرها وسننجح، سننجح اليوم أو غدا، أو بعد أجيال، لأننا نمثل أمل وطموح الملايين، هل تفهمين، إننا سننجح لأننا الضمير اليقظ، نمثل وازع اليقظة، هل تفهمين؟..

ظل يهذي، ويسألني، بينما أنا مستغرقة في التفكير، وفي الحق، لم أفهمه، فقد كان معقدا جدا.. وقلت في نفسي حين أتعلم القراءة والكتابة، سأفهم من تلقاء نفسي.. نظرت إليه، وإلى القلم، وإلـى الورقة المكتوبة، فسارع إلى إخراج ورقة بيضاء، وأمرني أن أكتب، أَ، أً، أُو.. وبسرعة كتبتهـا، فصفق:

- رائع. رائع. والآن إِي. قولي: إِي.. إِبليس، إِيمان، أنظري. عندما نضع هذه الشاطة تحت الألف، ننطق إِي.. هيا اكتبي، خمسين مرة لأعلمك، حرفا جديدا.

- إِي. إِي..

نطقت، واعتدلت لأكتب.

- لا. أيتها الخاملة. أحضري أولا، كأسا من مشروبك اللذيذ، لخالك.

قفزت إلى المطبخ، وعدت بالقارورة، وكأس واحدة.. لم أفكر بالمرة في نفسي. ولعل ذلـك، لأنني لا أشعر بالحاجة إلى مجاملة أحد. نظر إلى الكأس، وإلى عيني... وابتسم، كانـت بسـمته، مفعمة بالمودة والتقدير. غمرتني نشوة طرب، وأحسست لأول مرة، بأنني إنسانة.. بـأنني طفلـة صغيرة، أستقبل الحياة ولا أودعها، أو أتصارع معها، وأنني لست بضاعة، بضاعة ثمينة...

تمتم وبالبسمة العذبة لا تفارقه: ما أنبل شعبنا وما أعظم طموحه. ثم أخرج من جيبه كناشـة، وخط فيها رموزا.. وتأملني في شرود، هنيهة، ثم أضاف رموزا أخرى، وملأ الكأس ثم مـد لـي القارورة لأعيدها إلى الثلاجة.. استخرج من حقيبته مذياعا صغيرا، فتحه، فانبعثت موسيقى هادئة، استغرقنا على نغماتها في العمل، ولم ينهض للنوم، إلى في الساعة الثانية. وكنت قد أتقنت كتابـة كلمتين طويلتين، ظللت أرددها، أب، باب.

- وأين كنت قبل أن ألقاك يا خالي؟

- في منزل آخر، لكن الشرطة اكتشفته. فغادرته قبل وصولها...

- وكيف اكتشفته.

- عضو من جماعتنا ألقي عليه القبض، لم يصمد فاعترف.

- وإلى أين كنت ستذهب يا خالي؟

- هيا نامي يا ابنة أختي، فستنهضين باكرا لتوصلي ربحا.

- لكن لماذا لا تنزع كل ثيابك يا خالي.

- من يدري.. لا بد من اليقظة يا ابنة أختي.

وحشرت رأسي في ظهره، وردد في قلبي (أب، باب) حتى داهمني نوم عميق، ولم أستيقظ إلا على صوتي الفايزة وربح، في المطبخ:

- يا خالي زدني الحليب.

- والجبن يا خالي، أعطني مثل ربح.

وهو يرد عنهما بصوت خافت:

- أس. أس. لالاّ نائمة.. خفضا صوتيكما.. ها هو الجبن، هاهو الحليب. هاهي الزبدة، أس، أس لالة مسكينة نائمة.

اعترت جسمي قشعريرة، اهتز قلبي بعنف، اصطكت أسناني، أحسست بجبال من الدفء تذوب فوقي وتغمرني.. وعاودني الشعور بان الحياة هي هذه، وأنني في أقصى ذرى الهناء والطمأنينة، وجذبت الغطاء على عيني.. إنني خاطرة تجول في الآفاق، ونغمة تائهة، وشعاع يلثم زهرة.

ما أجمل الشعور بالصدق.

لكن الاختناق غلبني، وغص حلقي، فأجهشت بصوت مرتفع:

- أيتها الخاملة ماذا تفعلين؟

- لالاّ، لالاّ. خالي أعطانا قهوتنا.

واحتضنته لما رفع الغطاء عن وجهي، وأخفيت رأسي في صـدره ورحـت أبتلـع الغصـة والاختناق والنحيب.

- ما أطيبك، ما أرحمك، يا خالي العزيز.

- لالاّ لماذا لا ننام معك عند خالنا؟

ضمني إلى صدره في حنو.. تذاوبت لحظات.. ولم أتمالك عن الضحك، وهو يقفز بي بـين ذراعيه، ويتمشى بي في الغرفة، ويغني:

- أش يا بغالي، وصلني لاخوالي..

فبادرت الفتاتان، كل من جهتها:

- وأنا يا خالي.. أنا أنا..

- هيا، اغسلي وجهك، والحقني واشربي دواءك وقهوتك..

- كم الساعة؟

- الثامنة والربع.. لقد حان وقت الربح.

أعادني إلى السرير، عارية الصدر والكتفين، مبعثرة الشعر، مبللة الوجه، لـم أشـعر بـأي تحرج، وبقيت أتابع حركاته النشيطة، وهو يخرج البنتين، ويغلق الباب، ويختلي بي...

- أبرزي لسانك.

تأمله، ثم فتح عيني بأصبعيه، ودقق فيهما النظر.

- حسنا تمددي.

وأخرج من حقيبته قطنا وملقطا ، عراني وفحصني، ثم دقق النظر في قطعة القطن.

- سليمة.. بعض أوساخ ستزول بسرعة...

ثم ضغط بكلتا يديه، على كليتي.

- لا تشعرين بوجع.. إنهما سليمتان.. وهنا؟ هذا العرق.. وهذا.. لا أيضا.. إنك معافاة.

كنت أثناء كل فحصه الدقيق، أضحك، كما أنني أمد يدي للحناء وأجيبه:

لا. لا يا خالي الطبيب.

- إنك معافاة سليمة.. كيف لم تحبلي؟

وخطر لي، أنه لم يمسسني خشية أن أكون مريضة.. قد يكون كذلك.. صالح ليلة عثر علي، لم يفكر إلا فيما إذا لست عجوزا.. إنه طبيب، طبيب فعلي.. عندما كنت صغيرة ذهبت مـع أمـي للمستشفى، ولم يسمحوا لنا بمقابلة الطبيب. كان ينقصنا بطاقة فقر والدي.. إنني الآن أمتلك طبيبا.. وشعرت بالخجل.. خالي أيضا ينظر إلي كامرأة ناضجة، لا فتاة صغيرة، لا تلميذة أتعلم عليـه، (أب، باب) واضطربت.

يسألني، كيف لم أحبل...

- سقتني أمي ثلاث حبيبات رصاص، لكي لا أحبل مدى ثلاث سنوات..

- عجيبة؟

أخرج كناشه، وراح يرسم عليه رموزا، بينما سارعت إلى التستر...

- هيا أسرعي، سأعلمك عندما تعودين صنعة تكسبين بها قوتك، بدل...

لم يتمتم عبارته، وفهمته.. التحق بالفايزة، وربح، فارتديت ثيابي بسرعة.. وعندما عدت مـن الشارع، وجدته يستحم.. تذكرت أن صالحا يطلب مني أن أغسل له ظهره، وأن بوعلام، يفـرض علي أن أغسل كامل بدنه، وقررت في نفسي أنه لا مانع، من أن أعين خالي، وهو الذي لم يفتـأ، يعينني منذ جاءنا...

- خالي، هل أصوبن ظهرك؟

- شكرا. لقد فرغت. سخني لي قهوة يا رمانة.

كنت في المطبخ، عندما انفتح باب غرفة الحمام، وانتظرت خروجه لكنه لم يفعل، وقلت إنه يرتدي ثيابه، أو يحلق لحيته، وإنه سرعان ما يخرج.. إلا أن حركة غسل ثياب لفتت انتباهي.

- ماذا تفعل يا خالي؟

- سخني القهوة، إنني قادم.

جاء يحمل بين يديه، عدة قطع من ثيابه الداخلية، مغسولة، فشعرت بغضب، وقلت منفعلة:

- إنك تبالغ، أنت غير اجتماعي.

بادرني بهدوء وهو يبتسم:

- هذه سنوات وأنا أعيش هكذا.. ومن يدري.

- لا يا خالي لا. الغسيل والطعام من اختصاصي أنا.

كنت في أوج الانفعالات، وكأنما صدمت في أعز أحلامي، وبدا لي أنه ليس من حقه أبدا أن يذكّرني، بأنه غريب عنا، وأنه عابر سبيل، قد يتركنا بين يوم وآخر.. بين لحظة وأخرى. لا. ليس من حقه أبدا أن يستمر في صرامته هذه، هو خالي، وأنا رمانة. ولكن مع ذلك كلانا، يصارع في هذه الحياة، وكلانا يعيش منفردا.. لا أيتها الشقية، أنت وحدك تعيشين منفردة.. أما هو.. آه.. إنه غريب، عابر سبيل، تنتظره جماعات كثيرة...

- لا يا خالي لا. أنا هنا امرأة، امرأة كبيرة، أعرف كيف أنام مع الرجال، وأغسل ثيابهم، وأصوبن ظهورهم، وأذلهم، أسجد عند قدمي.. هل تفهم وأنت ماذا تظن نفسك هل أنت إله.

انفجرت غاضبا، دفعة واحدة، وانتظرت أن يثور بدوره، لكنه ظل ساكنا، يتفحصني بعينيه الدعجاوين، وبسمته العذبة تتراقص على شفتيه.. لم أتحد أبدا رجلا، ولم أتحد أحدا.. لعل ذلك لأنه لم يتحدني أحد.. لا لقد تحداني بوعلام.. بوعلام لم يتحدني، ومع ذلك قتلته، أعدمته.. لم يستطع أن

يجمع بين شهوته، ورغبته في المال، وبين حبه لي، وذوبانه في جمالي. انتظرت لحظـات، وأنـا أحدق فيه، ماذا سيكون موقفه.

- أيتها الخاملة أين تنشرين غسيلك؟

لم اجبه، إنما سارعت إليه، وارتميت في أحضانه، وقد غلبني البكاء.

- إننا نعيش بدراهمك، وبحنانك.. ولكننا لا نتحمل كبرياءك.

- أيتها الخاملة. ماذا حلمت البارحة؟ هاك أنشري هذه الثياب، وعودي لأعلمك حرفة.

نشرت الثياب في الشرفة، وأنا أجهش بالبكاء وعدت إليه في قاعة الجلوس.. لم أكلمه مباشرة، إنما بقيت أدور، لأشعره بوجودي.

- هاتني قطعة ثياب ومقصا، أعلمك مهنة.

أحضرت له ما طلب، ففصل جملا وحمارا وأرنبة وكلبا، وعدة حيوانات، ثم أرانـي كيـف أخيطها، وأحشوها بالنخالة، وأصنع لها الأذناب والآذان بالجلد، وأكد لي أنني أستطيع كسب قوتي من هذه المهنة السهلة، ولم ينقطع عن الإلحاح والتأكيد حتى صنعت له أرنبة.

- ألا أوصل اليوم رسالة يا خالي؟

- ليس الآن.

وفي المطبخ، ظللت أبلل أصبعي بالماء، وأكتب في كل ما تقع عليه يداي، الحـروف التـي تعلمتها، ثم أركبها في كلمات.. وما أن فرغنا من تناول طعام الغداء، حتى طلب مني أن ألتحف.

- آه. سنخرج يا خالي، سنتفسح.

- هل جننت يا رمانة؟ إنني لا أستطيع الخروج في الوقت الراهن.

رد، وقد قطب بين حاجبيه فأضفت:

- ولكنك غيرت لحيتك وشخصيتك.

- أيتها الفضولية، حتى تأتي الأوامر، أما الآن، فهاك الرسالة..

- أبلغها إلى متسول البارحة؟

- كلا، لن تجديه مرة أخرى أبدا. سأفهمك.

وفي طريقي إلى مكان الموعد، كنت أشعر باعتزاز وفخر، وأنظر إلى السـادة، والأغنيـاء والتجار باحتقار، وأبصق باشمئزاز في وجه أصحاب السيارات الذين يضايقونني، وعندما وصلت، نظرت حولي، فأبصرته، كما وصفه لي خالي.. ساعي البريد، يصلح دراجته قرب صندوق بريـد حائطي، تثبت منه، ثم سألته:

- إلى أين تؤدي هذه الطريق؟

تفحصني ولم يجبني، فتذكرت أنني لم أظهر الصحيفة في يدي اليسرى، ومـا أن أخرجتهـا، حتى أجابني:

- آه، تؤدي إلى البحر.

أجال بصره في النهج الضيق، ثم جر دراجته، وجاء يتمشى إلى جـانبي، ومـا إن قطعنـا خطوات حتى سألني عن البضاعة، فسلمته المظروف، وضعه في جرابه، وأخرج مظروفـا آخـر سلمه لي، وهو يتفوه بكلمات لا معنى لها، تتعلق كلها بدراجته، وبمهنة ساعي البريد المضـنية... بدا لي أنه مختبل، حين قال إن السماء صاحية، بينما هي مدلهمة مكفهرة.. ثم مد يده وصـافحني ليمتطي دراجته وينطلق.

- خالي، ما معنى الرفيقة؟..

سألته، بعد أن انتهى من استنطاقي، عن كل تصرفاتي، وعما دار بيني وبين ساعي البريـد، وحين فرغ من قراءة الرسالة سألني:

- ماذا تقولين؟

- ما معنى الرفيقة؟

- آه. إن الذين يعملون من أجل الفقراء، والعمال الذين يقومون بواجبهم، يطلقون على بعضهم ألقاب الرفيق، والرفيقة. هل فهمت؟

- وهل سماء الرفاق صاحية، في الحين الذي تكون فيه سماء غيرهم مغيمة.

- كيف عرفت ذلك؟

- لقد قال الرفيق ساعي البريد.

- رائع. ذلك رمز، حين لا نكون مهددين بالخطر، نخبر بعضـنا بـأن السـماء صـاحية، والعكس.. رسالة شفوية جميلة، يحلو لكل رفيق أن يبلغها لرفيقه.

- إذن أنت في أمان.

- نعم يا رمانتي. يا رفيقتي. يا رفيقتنا.

خفق قلبي.. هل هو يغازلني، تيقظت أنوثتي.. رفعت بصري إليه، وتأملته مبتسمة، وسـاءني أن تكون نظرته عادية، استجمعت قواي:

- أتغازلني يا خالي؟

- قد يكون. فأنا على أية حال، لست خالك.

- وما هي نظرتك إلي؟

أضفت، فقد شجعني جوابه، ولم أبال باضطراب الكلمات بين شفتي.. فكر مليا، ثـم أخـرج كناشة وراح يقرأ الرموز التي خطها البارحة حين عدت بكأس واحدة:

- رمانة مادة خام. فتية رائعة الجمال، مناضلة صامدة في وجه الحياة، كلما نظرت إليها خيل إلي أنني أمام قضيتنا، في عمقها، وتفتحها، وجلالها، ونبل روحها.

طوى كناشه، وتناولني بين ذراعيه، ضمني إلى صدره العريض في حنان ولطف. وطبع على جبيني القبلة الأولى منذ جاء.

- أريد أن أعمل معكم. أن أكون رفيقة فعلية.

- إنك ما فتئت تعملين يا رمانتي. إنك المثل الحي للكادح الواعي، أنت لم تنقطعي، قط عـن العمل.. حتى حين كنت بين مخالب بوعلام، إنك مناضلة شريفة، ما دامت تعتلج فـي ضـميرك إحساسات استنكار الواقع، والتطلع إلى الخير.. إنك مناضلة شريفة، ما دامت ربح تقرأ والفـايزة تشرب الحليب، وتأكل الجبن والزبدة واللحم.. إنك مناضلة يا رمانة.

في الليل، أيضا، تعلمت حروفا وكلمات جديدة، وعند منتصف الليل، حينما هممنا أن ننهض إلى النوم، استأذنته أن أتناول كأسا مثله وطلبت منه أن يشرب كأسا ثانية على نخبي، فلبى بسرعة، وهو يردد:

- الخمرة تذيب الإرادات، ولكن لا بأس من تناولها، إذا كانت لنا السـيطرة علـى أنفسـنا.. سأشرب نخب انضمام رفيقة جديدة.

- خالي. السماء صاحية.

- نعم يا رمانتي.

نزع كل ثيابه. وضمني إليه، غمرنا الذوبان، ولم آسف للمرة الأولى في حياتي...

وكالحلم، كلمح البصر، انقضت أربعة أشهر، لم يخرج خلالها خالي إلا ثلاث مرات، وكنـت في كل مرة، أضع يدي على قلبي حتى يعود.. ولا أخرج أنا إلا مع ربح، أو للسوق، أو للاتصال بالرفاق، وكنت أعجب لتغيرهم في كل موعد، رغم أنني صرت ألاقيهم بالأربع مرات في اليـوم. تارة ملتحفة، وأخر سافرة، كما يأمرني خالي.. لا أذكر من الأربعة أشهر سوى أنني صرت أقـرأ الصحيفة، وأكتب الرسائل وأعين ربح على دروسها...

كلا. إنني أكذب، فأنا أذكرها، يوما فيوما، ولحظة فلحظة.. وسأظل أذكرها، حتى آخر رمق.. أذكرها كلها، وأذكر كل حركات خالي العزيز، حتى في تلك الأمسية المشـئومة.. حـين ذهبـت

للموعد، وجاء الرفيق، عرفني من علاماتي، وعرفته من علاماته أيضا، عرفني وعرفتـه جيـدا، لكنه طاف حولي، واقترب مني كأنما يغازلني، وهمس:

- الغيوم تلبد السماء.

وانصرف مباشرة. وعدت مسرعة إلى المنزل، أخبرت خالي، فبادر إلى إحضار حقيبته. قبّل الفايزة، وضمني إلى صدره في عنف ولثم كامل وجهي وودعني:

- لقني الفتاتين، أن تنكرا وجودي، قولي لهم إنك عشيقة سابقة لموظف سام في البنك، وأنـك الآن، بين الحين والآخر، تستقدمين ضيفا.. إن استنطقوك. سنتصل بك لا محالة.

- الوداع. إلى اللقاء يا رمانتي.

قبلني مرة عاشرة، وانصرف في هيئة متسول وهو يردد:

- يا أحباب سيدي عبد الرحمان.

***

فتح زوجها تاجر التحف الباب، وهو يلهث:

- رمانة. رمانة.

فقطع عنها تسلسل خواطرها، ونهضت تستقبله، وكانت الأشعة المتسللة من النافـذة لتسـتقر عليها وعلى اللحاف الوردي، قد انقطعت منذ مدة.. وآلمها أن لا تسـتعيد بقيـة أيامهـا، خاصـة اللحظات التي استشهد فيها خالها بين يديها، حتى وصلت إليه، كما تصله أية تحفة. فقالت في قلبها:

- عليه اللعنة تاجر التحف الوضيع.

الجزائر في جانفي 1969